أصوات منتصف الليل

سعيد المحروق

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

صدرت الطبعة الأولى من الكتاب سنة 1992 .

أعدت النسخة الالكترونية (Pdf)

بواسطة . أميـــرالعزابي

مايو 2015

هذه الأساطير ليست من تأليف كاتب، إذ هل تؤلف الأسطورة؟... لكن إذا كان لا بد للفعل من فاعل ما، فإن الفاعل ـ أي المؤلف أو القائل ـ هو الشعب، في زمن يصعب ضبطـه، ناهيـك عن تاريخـه ويبـدو أن الشعب لم يجد الوقت لكي يكتب أساطيره هذه بالحبر أو بأي مداد آخر، كتبها بشفاهه على الهواء أو على رمل الصحراء وما من ريب في أن الريـاح اكتسحت ذاكرته أكثر من مرة، وذهبت بـالكثير من حكـاياتـه، شعره، مفرداته، إيقاعاته... أي بكتاباته الشفوية.

لكن هذه الأساطير يبدو أنها استطاعت، بطريقة ما، أن تخذل مكر الرياح والنسيان، وأن تبقى مكتوبة على الهواء.

رائحة الكسرى والمسرى(*)!

« توطئة »

(1)

يعلو الصدأ الحديد بعوامل الرطوبة.

لكن الصدأ قد يعلو قلم الكاتب أيضاً. والسبب هنا قد لا يكمن في عوامل الرطوبة التي تصيبه في حد ذاتها، كما أن السبب لا يكمن أيضاً في عوامل التعرية، حين تصيب جهاز الكاتب التنفسي بنزلات البرد أو الصقيع أو الرشح . . .

لا يكمن السبب في عوامل التعرية، ولا حتى في عوامل التغطية، حيث يضطر الكاتب إلى لف جمجمته اتقاء للصقيع أو علاجاً للحمى . . إلخ.

بعيداً عن كل هذه التعقيدات، يمكن تشخيص صدأ القلم، أي صدأ الكاتب، في مجرد التوقف عن الكتابة إثر إجازة أو سفر . . . أو إثر مرض.

وإذا كان الصدأ الذي يعلو الحديد يمكن إزالته باستعمال الورق المصنفر، فإن صدأ القلم قد لا يفيد في إزالته أي ورق مهما بلغت صنفرته، مهما حككت هذا الورق على

(*) هذا العنوان مأخوذ من صرخة الغول إذا شعر بخطر في بيته، وأصله في الحكايات الشعبية «رائحة الكسرى والمسرى واش جابها لي في قصري».

القلم الصدىء، أي على رأس الكاتب الصدىء... فلن يجدي كل ذلك شيئاً.

والصدأ نفسه ـ وهذه حقيقة قد لا يعرفها الكثيرون ـ ذو دَرَجَاتٍ: قد يكون صدأ بسيطاً تكفيه حكة واحدة مصنفرة حتى يغدو القلم لامعاً كما كان.. أي يغدو الكاتب كاتباً بمجرد عودته لاقتراف القراءة وارتكاب الكتابة.

لكن صدأ الكاتب ـ وهذه حقيقة نعرفها جميعاً ـ قد لا يتوقف عند رأس القلم، بل هو قد يمتد، ثم هو قد يستشري فيصيب القلم كله، وهو قد يستفحل فينقّط الأصابع نفسها، وهذا هو ما يعرف (وقد لا يعرف) بداء الأصابع الصدئة.

بل قد يتسرب الصدأ من الأنامل والأصابع فيغزو خلايا وشرايين اليد وأوردتها، فنكون إزاء الداء المعروف (أو غير المعروف): اليد الصدئة.

لكن الأمر قد لا يتوقف عند هذا الشر.

فالأصابع الصدئة يمكن أن تنزع حتى تسلم اليد، واليد الصدئة يمكن أن تبتر لتسلم بقية أعضاء الكاتب، ولتسلم أطرافه الأخرى وأجهزته (الهضمية، التنفسية... الخ.) الانكى في الأمر أن يتسرب الصدأ من القلم والأصابع واليد ليمتد.. فيستشرى، فيستفحل ويعم بقية أجهزة الجسم، حتى يصل الصدر، وحينئذٍ يتحول الصدأ إلى صديد.

... وهو يصّاعد في الحنجرة حتى يصل الدماغ. وهنا.. نكون أمام الداء المعروف جيداً للقاصي والداني والغائب والحاضر: داء الدماغ الصدىء..

وفي كل حالة يتحول الصدأ دائماً إلى صديد. وفي كل

نوبة يموت الكاتب دونما حاجة إلى كفن ودونما حاجة إلى مراسم الدفن. . . ودونما، دونما أي حزن.

(2)

هكذا. . . فما أن أحسست بالصدأ وهو ينقّط قلمي حتى بدأت المخاوف تسلك دروبها في دورتي الدموية طبعاً ليس خوفاً على القلم. . فأنا متأكد أنه ليس من الصنف الباهظ. إنه قلم رديء جداً، إنما لأنني بدأت أشعر أن ثمة احتمالاً ممكناً أن يتسرب الصدأ إلى يدي، وحينئذٍ قد لا يمر طويل وقت حتى ينقط باقي أطراف الجسم، وعلى الأخص الرأس. . ذلك النتوء الوحيد من جسم الإنسان، النتوء الوحيد الذي يحرص ابن آدم أن يحميه، ويخاف عليه، على مر العصور، وفي جميع الحضارات.

إنه النتوء الوحيد المتفوق على كل النتوءات!.

(3)

ما أن بدأ الصدأ يعلو رأس قلمي، وبدأ يتسرب إلى أصابعي، حتى خفت أن يقفز أو ينط إلى رأسي فيصدأ هو الآخر. وحينئذٍ لم يكن لي من بد من أن أبدأ بعملية تلميعية لإزالة هذا الصدأ من سن القلم، واتخاذ الاحتياطات اللازمة خشية أن يتسرب الصدأ إلى. . . الدماغ.

استهلالي للقصيدة مثلاً، لم يعجبني، شعرت أنه لن يوفر لي الأمان. . . إلخ. أخطأت كثيراً في اللغة العربية، أخطأت في المبنى كما أنني لم أوفق في المعنى، فالمعاني كلها ملوكة، معروفة مألوفة: لم أشعر البتة أنني أتيت بشيء

جديد من عندي، من أوهامي وأحلامي وعقدي التي تستعصي على الحل إن لم تزدد تعقيداً وانعقاداً يوماً بعد يوم . . . وهكذا لم أتردد في أن أشعل القصيدة ناراً . . . مثلما قد أشعلتني شيباً.

لكنني لم ألبث أن فكرت: ما دمت قد فشلت في القصيدة فلأجرب القصة، ولم لا؟ فما دمت قد خفت على رأس قلمي، وعلى رأس رأسي . . فلا بد أن أكتب حتى لا أقع فريسة سرطان الصدأ.

حاولت أن تكون قصتي قصيرة بقدر الإمكان. قصة قصيرة لكي لا تستغرق مني جهداً طويلاً، ثم زدت في تقصيرها أقصر فأقصر . . . فأقصر.

كانت قصة تافهة، ما أن فرغت من كتابتها حتى أدركت على الفور أن قصتي أتفه من قصيدتي، لقد كنت محظوظاً إذ أسرعت بها إلى سلة المهملات والتفاهات.

طوال الوقت لا هَمّ لي سوى التفكير في أن أهرب بجلدي عن شبح الصدأ والصديد، ولا دواء لي سوى الدواة. لقد خانتني الدواة في القصة والقصيدة، فهل ستخونني في كتابة بحث؟ . . . لم لا أكتب بحثاً؟

قبل أن أبدأ في كتابة البحث، سألت: فيم يبحث الناس؟ منذ الوهلة الأولى أحسست أن كل شئون الدنيا لا بد أن تكون قد قتلت بحثا ، فما الذي أضيفه بـ (بحث) مواضيع وموضوعات ماتت من بحوث وتباحث ومباحثات الناس؟

رعم أن الأمر يبدو جلياً واضحاً لا مراء فيه، فقد قمت

بإجراء عملية تنشيطية لذهني، أي قرأت بعضاً من البحوث وبعضاً آخر من الأبحاث.

ما أن قطعت شوطاً قصيراً في القراءة والتلاوة حتى توصلت إلى قرار حازم بعدم قراءة أي بحث، فعلاً، لقد اكتشفت بأن كل الأشياء لم تقتل فقط، بل سلخت بحثاً وشويت وأكلت دونما حاجة إلى شوكة أو سكين.

(4)

لم أجد وسيلة أجتثُّ بها الصدأ وأتلافي بها الصديد سوى أن أقوم بقول ما قاله الناس الأولون...

إن أقوال الأولين هي الأُخرى قد غمرها الصدأ منذ زمن غير قصير. وها هي الآن قد بدأت تنضح بالصديد، عين الصديد الذي أخشى منه على جمجمتي، وهو بالنسبة لأقوال الأولين صديد مفضٍ إلى الموت والنسيان.

وإذا كان صدأ قلمي وصديده ونسيانه وموته.. إذا كان ذلك كله ليس بذي قيمة - لأن قلمي ليس من الصنف الباهظ الثمن - فإن موت أساطير أجدادي يعني موت شعبي برمته، على بكرة جده وجدته وأمه، وعلى كرة أحفاده وبلاده... وهكذا لم يبق أمامي سوى أساطير وأوهام وآلام أجدادي. .عسى أقوى على أن أكتبها وأنفخ فيها شيئاً من حياة، وعسى حياتها تبعد عني أشباح السرطان الذي بدأ ينقط قلمي بالصدأ ويهددني بالصديد فعسى بصنيعي هذا أنقذ حياتي الشخصية السرية والعلنية... أنقذ دماغي من خطر سرطان قلمي، مستهدياً أبداً بعقيدة ورثتها منذ جدود الأجداد: أن يموت إنسان فذلك لا يعني شيئاً، أمّا أن

يمـوت، تـراث شعب.. أشعـاره.:. أسـاطيـره... مفرداته... لغته... فذلك هو الموت الفصيح!... إن ذلك يعني أن الشعب نفسه يمـوت بالسـرطان الشعبي.. وتلك هي الكارثة.

السؤال الماثل أمامي الآن: كيف أُدون وأنقذ **تراثاً** شفهياً منسياً.. احتقره شعبه على مر العصور، واعتبره نـوعاً من الخرافات؟ تَحْيَـا مع خفافيش منتصف الليل، وتموت في رابعة النهار.

(5)

هذه الأساطير ليست من تأليفي، وهي ليست من تأليف كاتب، إذ هل تؤلف الأسـطورة؟... لكن إذا كان لا بـد للفعل من فاعل ما، فإن الفاعل ـ أي المؤلف أو القائل ـ هو الشعب، في زمن يصعب ضبطه، ناهيك عن تاريخه. ويبدو أن الشعب لم يجد الوقت لكي يكتب أساطيره هذه بالحبر أو بـأي مداد آخـر، كتبها بشفـاهه على الهـواء أو على رمل الصحراء وما من ريب في أن الرياح اكتسحت ذاكرته أكثر من مرة، وذهبت بالكثير من حكايـاته، شعـره، مفرداتـه، إيقاعاته... أي بكتاباته الشفوية.

لكن هذه الأساطير يبدو أنها استطاعت، بطريقة ما، أن تخذل مكر الرياح والنسيان، وأن تبقى مكتوبة على الهواء.

دوري لم يتعد نقل هذه الكتابات الشفوية من الشفاه إلى الحبر، ومن الهواء ورمل الصحراء إلى الورق. لم أضف ولم أحذف، بل حاولت جهدي أن أحتفظ بتضاريس هذه الكتابات حتى في إيقاعاتها وإيحاء كلماتها. كل ما يمكن أن

يذكر لا يعدو بعض التعبيرات التي يمليها البيان العربي أو الظروف، هنا وهناك.

هل هذا هو كل ما أبقته الرياح؟
هل هذا هو ما أبقته عوامل التعرية؟
هل هذا هو ما أبقته عوامل التغطية؟
أيها النسيان!
هل هذه الأساطير هي الوحيدة التي تآمرت عليك؟
الرياح قطعاً لا تجيب. لأنها لو أجابت لردت إلينا بما مضى.
عوامل التعرية سوف تحيلنا إلى عوامل التغطية.
عوامل التغطية لن تحتاج أن تقسم يميناً إنها ما غطت شعراً ولا ردمت حكاية، ولا محت إيقاعاً أو مفردة.
أما أنت أيها النسيان... فنعرف سلفاً أنك لن تجيب!.

سعيد المحروق
طرابلس الغرب 1978م

(*) نشر الجزء الأخير من هذه المقدمة كتوطئة في مجلّة الفصول الأربعة لبعض هذه النصوص الشفوية عام 1978م. ثم نشرت كاملة في صحيفة الجماهيرية 1986م.

الموت أكثر من مرة

(1)

كانت بنات السُّلطان الثلاثه قد جلسن في السقيفة، يشتغلن في أعمال الصوف، ويثرثرن. . . قالت كُبْراهُنَّ:

ـ أنا أُريد أن أتزوج رجلاً أجرب وغنياً، له رزق وفير.

قامت الوسطى فيهن، وقالت:

ـ وأنا أُريد أن أتزوج رجلاً أعمى. . رجلاً أعمى وفي بسطة من الرزق والدراهم.

عقبت أختاهما الصغرى، وعبرت عما تريد:

ـ أنا أُريد الزواج من شحاذ، رجل شحاذ وجميل.

كان أبوهن يسترق السمع إليهن. . قرّر أن يحقق رغباتهن، فزوج الكبرى رجلاً أجرب، والوسطى زوَّجها رجلاً أعمى، وعندما طرق بابه أحد الشحاذين، ناداه إلى الداخل:

ـ هيا خذ، سوف أعطيك هذه الصبية.

ـ ماذا أفعل بها؟! أنا مجرّد شحاذ، ماذا أستطيع أن أفعل بها؟

قال السلطان للشحاذ:

ـ أنت تذهب لتشحذ خبز يومك. . وهي تأكل.

زوّج السلطان ابنته للشحاذ، وكان للسلطان بيت متهدم في تلك الجهة، فأسكنهما فيه.

وهكذا... أصبح الشحاذ يخرج كل صباح متسولاً، ليعود بما يحصل عليه إلى زوجته، ويقيمان أودهما.

* * *

بعد حين حملت الأُخت الكبرى، وسرعان ما جاءها المخاض، فولدت. قالت زوجة الشحاذ لزوجها:

ـ سأذهب لأزور أُختي.

قال الشحاذ لزوجته:

ـ ماذا ستفعلين هناك؟ إن أُختك سوف تَحْتَقِرُكِ.. إنك زوجة شحاذ، فماذا ستفعلين عندها؟

لم تقتنع زوجته.. قالت: «لا يهمني ذلك».. إنني أعرف أُختي، وأنا ذاهبة إليها.

صممت زوجة الشحاذ على رأيها، وذهبت لتزور أُختها.

كان للأُخت الكبرى أَمة تقوم بخدمتها، فقالت للأَمة:

ـ ها هي تلك الملعونة قد جاءت، إنه جزاؤها أن تتزوج شحاذاً حقيراً... اجمعي لها كل الملابس القذرة لكي تغسلها، وعندما يحين موعد ذهابها اقذفي عليها مياه الغسيل... إياك أن تعطيها شيئاً تأكله.

أعطت الأَمة لزوجة الشحاذ تلك الملابس، فغسلتها، ثم أعطتها خفية من سيدتها، قفة من الشعير، وأخرى من القمح، وكمية من الزيت، وأوصتها ألاّ تخبر بذلك اختها: «إياك أن تبوحي بما أعطيتك لأختك».

قفلت الأُخت الصغيرة راجعة إلى بيتها، فقال لها زوجها

الشحاذ:

ـ إيه... كيف حالك أنت وأُختك؟ فقالت:

ـ تماماً كما حذرتني أنت.. لم ترض بي.. احتقرتني...

قال الشحاذ:

ـ أعرف ذلك سلفاً.. إنك مجرد زوجة شحاذ.. ما حاجتها إليك؟.

بعد حين آخر، ولدت الأُخت الأُخرى الوسطى، فقالت زوجة الشحاذ لزوجها:

ـ سوف أذهب إلى أُختي، لقد أنجبت طفلاً.

قال الشحاذ:

ـ سوف تفعل بك مثلما فعلت بك أُختك الكبرى.. ما لك وإياهما؟

أصرت الزوجة على الذهاب قائلة: «سوف أذهب»، ثم ذهبت.

أخذت زوجة الشحاذ كل ملابس أُختها القذرة وغسلتها. قالت الأُخت الوسطى لخادمتها:

ـ يا خالتي، إذا آن أوان ذهاب هذه الملعونة، خذي ماء الغسيل ادلقيه عليها واطرديها.

نهضت تلك الأمة، وأعطت زوجة الشحاذ قفة من الشعير، وأُخرى من القمح، وكمية من الزيت، ثم قفلت زوجة الشحاذ راجعة إلى بيتها.

* * *

بعد حين من ذلك جاء دور زوجة الشحاذ فحملت هي الأخرى، ثم فاجأها المخاض، فقالت لزوجها:

ـ هيا.. ماذا تنتظر؟.. اذهب وتسول لنا بعض الخرق التي سنضع فيها هذا الوليد إذا جاء.

ذهب الشحاذ من توه يتسول الخرق البالية من بيت لبيت.

ما أن حانت لحظة الميلاد، حتى خرجت إليها حوريات الجنة.. اشتغلن لها كقابلات، ثم وضعن الوليد الذي كان أنثى في القماط، ورتبن كل شيء في محله... وأخيراً أردن أن يهدين المولودة هدية الميلاد، فسمينها: (ماويه.. ماويه بنت طرنجة وليتحول الماء الذي يلامس جسمها إلى نقود)... ثم اختفت الحوريات.

حينما دخل الشحاذ بالخرق الرثة التي تسولها، صاحت به زوجته:

ـ إرم بها هناك بعيداً...

رمى الشحاذ بالخرق البالية دون أن يفهم شيئاً، ثم طلبت منه زوجته أن يأتي لها بالماء، وطفقا يلعبان بوليدتهما في الماء الذي سرعان ما يتحول إلى نقود، يفرغان النقود من الحوض ويأتيان بماء جديد يتجمد بدوره نقوداً بمجرد ملامسة جسد الوليدة... استمر الأمر هكذا حتى ضاق البيت عن احتواء النقود التي لم يجدوا مكاناً يضعونها فيه.

في نفس اللحظة خرج ذلك الزوج الذي كان شحاذاً يبحث عن بنائين فوجدهم في الحين، بنى له بيتاً وابتاع أثاثاً واشترى كل ما يحتاجه من أشياء.. غمره الخير بلا حد.

(2)

بعد وقت سمعت أُختاها ولم تدعا الفرصة تمر دون أن تتكلما كعادتهما.

– إيه.. تلك الملعونة ولدت هي الأُخرى والآن.. ما الذي سنهديه لها؟

جمعتا بقايا طحين الرحى.. وضعتاه في هيئة عجين وأخذتاه لها لكي تهدىء من جوعها، تلك هي هدية زوجة الشحاذ.. على رغم ما لديهما من خير عميم.

وصلتا فوجدتا ذلك الرجل لابساً ألبسة جديدة!... بيتاً جديداً!.. كل شيء أمامهما يبدو أنيقاً جديداً!!..

وجدتا ذلك الرجل أمام باب بيته فسألتاه:

– أيها الرجل، أين خربة فلان؟

رد عليهما قائلاً:

– ها هي ذي، ادخلا.

– سود الله له أيامه، متى بنى هذا البيت بهذه السرعة؟

فيقول لهما:

– لكن لماذا تريدان تسويد أيامه، إنه قد بنى بيتاً كسائر عباد الله.

لم يشأ أن يفصح لهن عن هويته.

أصبحتا تذهبان تدوران هنا، تدوران هناك، ثم ترجعان، تسألانه:

– أنت أيها الرجل، أين خربة فلان؟

يرد عليهما قائلاً:

– ها هي ذي، ادخلا.

. . استمرتا هكذا حتى المرة الثالثة، حيث فتحن الباب، قابلتهما أختهما عن بعد.

همست الأختان لبعضهما: «ايه. . سود الله لها أيامها. ما أسرع ما أصبحت هذه الملعونة تنعم بكل هذا الخير! . . أين سنضع هذا العجين الذي أحضرناه لها»؟. لم تجدا مكاناً فحشرتاه خلف باب البيت.

تعرفت عليهما أختهما عن بعد، فصاحت بهن:

ـ لا، لا، قفا هناك، لا تمشيا على الأرض، سوف تفرش لكما الخادمة تحت أقدامكما لتسيرا على الفراش وليس على الأرض.

أمرت خادمتها قائلة:

ـ هيا افرشي الأرض من عتبة باب البيت إلى عتبة الدار. إنني أريد أخواتي أن يمشين على الفراش وليس على الأرض.

تقدمتا إلى الداخل، إذا بروحيهما على وشك الخروج من جسديهما؛ سرعان ما دبّ الحسد في أعضائهما على الخير الذي غمر أختهما من حيث لا تدريان. دخلتا إلى الداخل فأسرعت تلك الخادمة تجهز لهما مائة خير، بينما أختهما تضطجع على ثمين الأسِرَّة والمخدات، محاطة بكل ما يسر العين والخاطر.

دخل الرجل، فسلم عليهما ثم نادته زوجته وأَسَرَّتْ له: «عندما يحين موعدُ الغداء تعال بالإبريق لتصب الماء على أيدي أختيَّ انحرف بأنبوبة الإبريق، فأصفعك وسأقول لك:

ـ لماذا تنحرف بالإبريق على أختي؟ فتقول: عفوكِ...

يا سيدتي، لقد حصل ذلك سهواً مني».

حان ميعاد الغذاء، وجاء الرجل بالإبريق ليصب الماء على أيدي الأختين، ما أن انحرف بأنبوبة الإبريق حتى قامت زوجته ولطمته، قالت له:

– لماذا تنحرف بالإبريق على أختي؟

قال لها:

– بدون قصد، سامحيني!

رفضت الأختان تناول الغذاء.. نهضتا. كُبْراهُنَّ ذهبت إلى زوجها الأجرب وقالت له: «والله لن أبقى معك أيها الفرطاس المشئوم، هيا طلقني» فطلقها. فعلت الأخرى نفس الصنيع مع زوجها الأعمى؛ ذهبت إليه وطلبت منه أن يطلقها: «والله لن أبقى معك يوماً، هي طلقني..» فطلقها.. وهكذا رجعتا إلى بيت أبيهما.

بقيت الأخت الصغرى مع زوجها الذي كان شحاذاً، انهال عليه المال بمعجزة ابنته، فلم يجد أين يضعه. الغرف قد امتلأت بالمال، والماء الذي يلامس تلك الطفلة يتجمد نقوداً.

(3)

بعد وقت طويل أصبحت الطفلة فتاة: كبرت وترعرعت فسمع بها سلطان في بلاد أخرى. قالوا له: توجد فتاة بنت سلطان في تلك البلاد البعيدة، إذا لامس جسدها الماء فإن ذلك الماء يتجمد نقوداً!

قام ذلك السلطان فوراً وجهز لها حوضين، وقال: «لا بد

أن أذهب، وأحضر معي هذه البنت». عمل هكذا وذهب إلى ذلك السلطان جدّ البنت، قال السلطان الجد: «هي، في الحقيقة ليست ابنتي، إنها بنت بنتي، سوف أشاور أهلها، إذا وافقوا، اعتبرها قد وصلتك».

عندما ذهب الجد وشاور ابنته وصهره قالا له: «ليس عندنا بنت معك، إذا وافقت فأهلاً، وإذا قلت لا، فلا».

عاد السلطان فزوج البنت للسلطان الزائر، وعمل له اللازم «جحفة، وباصورا» وتبارك الله، جعلوا لها عبداً وأمة ثم أخذ السلطان هؤلاء مع البنت زوجته وغادروا جميعاً إلى بلاد الزوج الجديد.

أصبحوا يغدون السير، لكن ركب الزوج قد سبق العروس، لقد تأخرت مع إمائها. عطشت العروس فقالت للخادمة: «يا عزيزتي» يا خادمتي، أنا ظمآنة، أعطيني أشرب».

قالت الخادمة:

ـ أعطيني عينيك أسقك.

ـ وكيف أعطيك عَيْنيَّ لتسقيني؟

ـ إذن دَبِّري رأسك! والله لن تري قطرة ماء مني.

فكت العروس عينيها من محجريهما، فأعطتها الخادمة جرعة ماء، وأخذت تلك العينين، أصبحت العروس عمياء.

لم يمض وقت طويل حتى نادت العروس مرة أخرى:

ـ عزيزتي، لقد عطشت، اريد ماء.

ـ أعطني قلبك أسقك؟

ـ وكيف أعطيكِ قلبي لمجرد جرعة ماء؟

قالت الخادمة كعادتها:

ـ دبري رأسك.

استلت العروس قلبها من جوف صدرها فتحولت إلى عصفورة وطارت. أخذت الخادمة ذلك القلب وتلك العينين لفتهما في منديلها، ثم سار الركب والعصفورة تطير في أثره إلى أن وصل الركب في النهاية إلى البلاد المقصودة.

هناك كان الناس قد تجمهروا، تحلقوا حول تلك الأحواض ليشاهدوا المعجزة بأعينهم، كانت تلك المرأة قد تظاهرت بأنها هي العروس. نزلت من هودجها ثم دخلت هذا الحوض وخرجت منه لتدخل حوضاً آخر فوجدها الناس مجرد أمة سوداء شعثاء الشعر، قبيحة قبحاً مخيفاً. قالوا لها: «كيف أنت هكذا»؟ فقالت لهم: «إنها مياه بلادكم هي التي جعلتني هكذا». . «ما علينا» قال السلطان: «لقد كانت خديعة، لكن لا يهم سأعتبرها مجرد خديعة»، ثم أخذها معه، ووضعها في البيت، في حين كانت تلك العصفورة تتبع تحرك الركب حتى وصلت إلى البيت فحطت على السطح ووقفت.

كانت تلك العصفورة فوق سطح ذلك البيت تغني وتقول في غنائها:

«. . ماويه بنت طرنجة

في السماء تطير

الخادم الأعجمية

فوق الحرير والسرير. . ».

ثم تطير بعيداً.

لكن حدث أن مرض شيخ طاعن في السن فذهب ذلك السلطان يعوده قال الشيخ:

ــ لا أدري ما أسمع، يخيل لي كأن هناك عصفوراً يتكلم أو مخلوقاً ما، وهناك زغاريد نساء مثل رورورورو.. ويتكلمن. لكني لم أفهم ماذا يقول العصفور.

رجع السلطان إلى بيته فأغلظ الإيمان في النسوة قائلاً: «والله، إذا تكلمت واحدة منكن فسوف ترى عاقبتها».

رجعت تلك العصفورة إلى مكانها وشرعت تقول كعادتها:

«.. ماويه بنت طرنجة
في السماء تطير
الخادمة الأعجمية
فوق الحرير والسرير..»

استمع الرجل «السلطان» إلى العصفورة وهي تغني، ففكر في طريقة يمسكها بها دون أن يؤذيها وهكذا وضع لها الرجل قطراناً أو شيئاً يشبه الغراء، ثم لم يلبث أن أمسكها.

وضع الرجل العصفورة في مكان نظيف بمثابة العش داخل بيته، وبقي إلى جانبها، لم يعد يقوى على أن يفارقها، لم يعد يذهب حتى إلى عمله، امتنع عن كل ما يدعوه إلى مفارقة العصفورة ولو للحظة، تفرغ لها يداعبها ويلاعبها، وسرعان ما امتلأ قلب تلك الخادمة غيرة وصاحت:

ــ يا إلهي! لقد أصبحت لنا ضرة حتى بعد أن تحولت الملعونة إلى عصفورة!».

(4)

بعد وقت طويل، اضطر الرجل إلى أن يذهب في مهمة ما، لكن قلبه لم يطاوعه، فهو مشغول البال على مصير تلك العصفورة أثناء غيابه.

أخيراً قبل أن يعقد العزم على الذهاب، جمع كل من في بيته من النساء والإماء وحذرهن قائلاً:

ـ لو آذيتن هذه العصفورة، أو خرجت من بيتي أذقتكن الويل؟!.

ما إن رحل حتى أسرعن إلى العصفورة فقصمن عنقها، وحرقنها في الجمر، ثم أخذن عظامها ورمادها ودفنه خلف باب البيت.

ذلك الرماد نما وتحول إلى تفاحة!

رجع الرجل إلى بيته بعد أن أدى مهمته فسألهن بمجرد عودته:

ـ أين العصفورة؟

ما إن علم بأمر اختفاء العصفورة، حتى انهال عليهن ضرباً وركلاً، أمهات وبناتاً، نفذ فيهن وعيده، ثم خرج هائجاً. حينما كان في طريقه إلى الخروج رأى تلك التفاحة وقد أورقت في السقيفة ذكية الرائحة، غمرت الدنيا بطيبها. . جلس الرجال جنب التفاحة. . امتنع عن الحراك، فراشه، ومنامه، وكل أشيائه أصبح تحت تلك التفاحة.

بعد مضي وقت طويل آخر، طرأ للرجل ظرف آخر يستدعيه للذهاب بعيداً مرة أخرى، قال لهن: لو تركتن دابة

من الدواب تدخل البيت فتمس هذه التفاحة أو لو ترتكن الباب مفتوحاً. . فسوف ترين سوء العاقبة.

ما إن غادر الرجل حتى قامت النسوة إلى الشجرة فاقتلعنها من جذورها ثم هوين عليها بالفئوس فقطعن أوصالها وأغصانها ثم حرقنها حتى تلاشت بين ألسنة اللهيب، عدا قطعة صغيرة من خشبها نطت ولم يرينها عندما هوين على جذعها بالفئوس. . طارت تلك الخشبة إلى خارج عتبة البيت.

رجع الرجل من سفره، ولتوه طفق يسأل: «أين. . . أين؟» انهال عليهن ضرباً وركلاً كالمرة السابقة ثم خرج أصبح لا يرى، لقد تأكد من النهاية فخلد إلى الصمت.

تلك الخشبة عثرت عليها عجوز فقيرة خلال بحثها عن الحطب لكي تطهو عليه عشاءها أو غداءها، انحنت العجوز لتلتقط الخشبة فوجدت فيها عبيراً أنعشها، قالت في سريرتها؛ سآخذها وأضعها في الجرة التي أشرب منها لكي تبقى جرتي ذكية الرائحة أخذتها ودفعت بها في جرتها.

أخذت تلك الخشبة تتورم رويداً رويداً، وحينما دخلت تلك العجوز إلى أحد الأركان وجدت فتاة أمامها لكنها عمياء: رأت تلك الفتاة وهي تتورم حتى أصبحت فتاة كاملة التكوين بعد أن كانت مجرد خشبة صغيرة.

أصبحت حياة تلك الفتاة تسير على هذه الوتيرة: إذا نامت تلك الأمة التي تحوز قلبها فإنها تبعث حية، تستيقظ وتنهض وتقوم لتساعد تلك العجوز على القيام بأعباء المنزل، وتأتي العجوز لتغسل لها قدميها فيتحول الماء إلى

نقود تغمر المنزل أما إذا استيقظت تلك الأَمَةُ فإن الفتاة تعود إلى الموت من جديد.

ذات يوم قالت الفتاة للعجوز:

ـ يا جدتي.. اذهبي وأحضري عينيين سمينتين من عيون البقر. ضعيهما في قفة ثم نادي في الناس وقولي: «يا من يشتري عيون بقرة بعيون ابن آدم؟» إنك ستحصلين على عينين آدميتين من فلانة في بيت فلان وسمته لها!

ذهبت العجوز على الفور، فتحصلت على عيون بقرية سمينة وطفقت تنادي حتى وصلت إلى بيت أولئك النسوة. قالت إحداهن للأخرى: هيا دعينا نشتري هذه العيون الرائعة لنملأ بها كروشنا. دعونا نعطيها تلك العينين الآدميتين، لا حاجة لنا بها.

قالت الأخرى:

ـ يا إلَهي! من يدرينا لعلَّ تلك الملعونة ما زالت موجودة في بعض الأماكن.

ردت الأخرى عليها وقالت: دعي عنك ذلك.. لقد أحرقناها وأصبحت رماداً.

كانت الإماء يحببن اللحوم كثيراً فنزعن من منديلهن تلك العينين الآدميتين وأعطينهما العجوز مقابل تلك العيون البقرية.

رجعت العجوز إلى الفتاة بالعينين فلحمتهما من محجريها وأصبحت قادرة على الرؤية لكنها بقيت بلا قلب بعد أيام أخرى قالت الفتاة للعجوزة: لو بعثتك مرة أخرى

في سبيل القلب فإنهن سوف يعلمن بكل شيء ولن أتحصل على قلبي، لذا ضعيني فوق جمل، وعندما يتعب الجمل من طول السفر سوف يلقى بي على الأرض.

قالت العجوز: يا بنتي لقد تعودت أنا على عشرتك وتعودت أنت على عشرتي أنا بمثابة جدتك وأنت بمثابة ابنتي.

رفضت الفتاة وقالت: «لا» فلم يكن بوسع العجوز إلاَّ أن وضعتها على ظهر الجمل، وقالت العجوز: أيها الجمل انهض، وإذا أدركك الإعياء والتعب قف وألق بها فوق الأرض.

أخذ الجمل يسير في الغابة، وما أن حلَّ به الإعياء حتى ألقى بها فوق أرض الله. هنا خيل لها الله قصراً عامراً بكل شيء، كل ما خلق الله من خير وجدته في ذلك القصر.

بقيت تعيش في ذلك القصر، إذا ما استيقظت فإنها تقوم وتستمتع بتلك الخيرات، أما إذا ماتت فإن المسكينة تبقى هناك في انتظار اليقظة والحياة.

(5)

بعد وقت خرج ذلك الرجل «السلطان» في رحلة صيد.

لاح له من بعيد ذلك القصر، قال:

ـ إنه قصر لكن يبدو أنه قصر جاهلي، طرازه فريد لا يشبه كل القصور.

أسرع الرجل إليه. دخله فوجد تلك الفتاة متمددة ميتة.

أقام الرجل في ذلك القصر، وطابت له الإقامة حتى أنه لم

يعد يقوى على مفارقة الفتاة، أو مغادرة القصر، لا هي سألته لماذا الدخول والإقامة معها، ولا هو سألها عن سبب مجيئها إلى ذلك المكان. حملت الفتـاة وأنجبت طفلاً كبـر ذلك الطفل وترعرع، واكتسب سحنة وملامح أمه، كأمه تماماً، ثم تعلم المشي فأخذ يمسك بأبيه: وسرعان ما قال إنه يريد أن يذهب معه. قالت له أمه:

يا ابني عندما تذهب مع أبيك ستجد في عنق الخادمة هناك رقية لي، إنزعها منها وخذها معك حتى إذا وصلت مع أبيك إلى شط البحر إرمها هناك في البحر.

سافر الرجل مع ابنه حيث وصلا إلى البيت فأدخله إلى الإماء... صحن قائلات:

- يا إلهي! هاتان العينان عينا تلك الملعونة!

قالت إحداهن: كفاكن جنوناً، تلك الملعونة قد أصبحت رماداً.

أمسك الصبي بتلك الرقية، طفق يلعب بها وعندما أتاه أبوه ليرجعه إلى أمه نزعت الأمة منه الرقية، فبدأ في البكاء.

- «دعيها معه، سوف يردها إليك»، قال الرجل. قالت له الأَمَة: «إن فيها دواء لكبدي» ثم نزعتها منه..

رجع في اليوم التالي أو الذي يليه، أمسك بالرقية مرة أخرى وأخذ يلعب بها كعادته وحينما جاءت الأَمَة لتسترد الرقية قال الرجل:

والله لن تنزعيها منه هذه المرة. سوف يرجعها إليك.

أخذ الصبي تلك الرقية معه، وعندما وصلا إلى شط البحر رمى الصبي بها في مياهه رجع القلب إلى مكانه في صدر تلك المرأة. أسرعت المرأة إلى باب البيت لاستقبال ابنها وزوجها، قالت الزوجة لزوجها:

ـ تعال اخبرك بكل الذي طرأ لي، أنت لم تسألني وأنا لم أخبرك من قبل:

«أنا تلك العصفورة التي أحرقت، وأنا تلك التفاحة، وأنا تلك الخشبة الصغيرة، كل ذلك قد طرأ لي. لقد صرت خشبة صغيرة جداً، عثرت عليَّ العجوز الفلانية، وربتني وأصبحت امرأة، ثم طرأ لي هكذا ثم هكذا.. والآن الحمد لله.

ـ مررت بكل ذلك؟.

ـ كل ذلك مرَّ بي!!.

بقي هناك بضعة أيام، ثم قفل راجعاً بعائلته.. تخشب كل من بالبيت من الأشرار كل في مكانه لم يعد أحد منهم يقوى على الحراك، وخرج الرجل إلى جيرانه يسألهم أن يعطوه حطباً، ثم أشعل النيران في ذلك الحطب، وزاد النيران إضراماً بأن ألقى فيها كل أولئك الأشرار.

وهكذا ملأ الجوابي بالمياه، وأعلن في أهل البلد أن يأتوا ليشاهدوا المرأة وهي تدخل الجابية تلو الجابية حيث تتجمد المياه نقوداً.

قال الرجل:

ـ إنها صدقة لآخرتها منذ أن تعذبت حتى هذا اليوم..

الجزاء

حدث أن اجتمع مرة كل من الثعلب، والأسد، والذئب، قالوا لبعضهم: هيا بنا نذهب للقنص ثلاثتنا!... فذهبوا، واصطادوا بقراً وحشياً، وغزالة، وضباً.

بعد أن حازوا فرائسهم، قال الأسد:

ــ هيا بنا نقتسم الفرائس. من منكم يتقدم إلى القسمة؟.

فكّروا جميعاً، ثم اتفقوا على «الذئب» أن يجري القسمة. فأسرع الذئب يفكر، ويقسّم:

فأعطى للثعلب الضب، وأعطى لنفسه بقر الوحش، وأعطى للأسد الغزالة.

خزر الأسد إلى الذئب خزْراً حانقاً، ثم ضربه بمخلبه، فتدحرج على الأرض.

أمر الأسد الثعلب أن يتقدم، ويعيد القسمة. فتقدم الثعلب وقسم الغرائس:

أعطى للأسد بقر الوحش لعشائه، والغزالة لغذائه، أما الضب... فاختاره إفطاراً له في الصباح.

بعدئذ، قفلوا راجعين إلى بيوتهم: فرجع الثعلب صفر

اليدين وأخذ الأسد الفرائس كلها. . . وبقي الذئب يتدحرج ويعوي. . . لقد أوجعته خبطة الأسد.

ذات يوم مرض الأسد، فزاره جميع الوحوش يواسونه، ما عدا ذلك الثعلب، فلم يزره.

وقال الذئب للأسد:

ـ إن ذلك الثعلب الذي قسم الفرائس وفق تعاليم الغابة، قال لن أزور الأسد إطلاقاً. لقد أبى واستكبر. . . عليك! فأرسل له لكي يأتي!

أرسل الأسد للثعلب رسولاً، فحضر. وبعد أن حضر الثعلب سأله الأسد:

ـ لِمَ لَمْ تزرني؟

لقد زارني جميع وحوش الدنيا. . فأين كنت؟ ألم يأتك نبأ مرضي؟؟

قال ذلك الثعلب:

ـ لقد سمعت أنك مريض، فذهبت أبحث لك عن دواء.

قال الأسد:

ـ وهل وَجدْت لي الدواء؟.

قال الثعلب:

ـ نعم. . . دواؤك في عرقوب ذلك الذئب الذي خبطته برجلك.

نادى الأسد في جميع الوحوش أن يأتوا له بذلك. . الذئب. . وبعد أن أتوا به أمرهم أن يكسروا ساقه، ثم تقدم الأسد فنزع عرقوبه. . . ثم أطلقوا سراحه.

بعد كل ذلك ذهب الثعلب للذئب وقال:

ـ هذا بمثابة جزائك. من يصنع خيراً يجد الخيـر، ومن يقترف الشر يلق الشر.

فسأل الذئب الثعلب:

ـ وما الذي صنعته لك من شر؟

قال الثعلب:

ـ لقد اغْتَبْتَني بالسوء أمام الأسد، قُلْتَ له: إنني استكبرتُ عليه، وإنني لن أزوره. وها أنا ذا قد رددتُ لك الجزاء!.

بونفيص

(1)

في الزمن القديم...

كان هناك رجل قد تزوج سبع نساء... وكن جميعهن قد حملن منه. ذات يوم أحضر الزوج سبع تفاحات. ست من نسائه أكلن تفاحاتهن، أما السابعة... فقد أكلت نصفاً، وتركت نصفاً. قالت: سوف آكل النصف الآخر فيما بعد.

حينما طرق بابها أحد الشحاذين، لم تجد ما تعطيه، فأعطته ذلك النصف من التفاحة، وعندما آن أوان المخاض، أنجبت ست من نساء الزوج ستة أطفال، أما تلك المرأة السابعة... فقد رزقت بنصف طفل. احتار الناس، وقالوا: «ماذا نسمّيه؟» فاتفقوا على أن يسمّوه (بونفيص).

(2)

كبر أولئك الأطفال، فابتاع والدهم لكل واحد منهم حصاناً، أما نصف الآدمي ذاك... فقد احتقره، ولم يعامله أسوة بأخوته.

ذات صباح، ذهب الأطفال على صهوات جيادهم، إلى مكان ما. فرجع بونفيص إلى أمه باكياً شاكياً. حينما سألته

عمّا يبكيه؟ قال لها:

ـ لقد ابتاع أبي لإخوتي خيلاً.. أما أنا.. فقد احتقرني.

قالت له أمه:

ـ اذهب إلى حظيرة أخوالك، خذ منها كبشاً، اربط الكبش بحبل، واجعل الحبل بمثابة لجام. ثم... امتط صهوة الكبش، والحق بهم.. أي بهؤلاء...

ذهب بونفيص، ففعل مثل ما نصحته أمه: أخذ كبشاً، ربط الكبش بحبل (بمثابة لجام)... ثم امتطى (صهوته)، وذهب في إثر إخوته، وهو يغني:

هيا.. فلتركض أيها الكبش، فلتركض.

الحق بهم بهم، لا بد أن تلحق بهم.

تجاوزهم، تجاوزهم.

هيا.. فلتركض أيها الكبش!

استمر يعدو فوق صهوة الكبش، حتى لحق بإخوته، فصاحوا جميعاً:

ـ ها هو ذا بونفيص، قد وصل!

واصل جميع الإخوة مسيرهم، بما فيهم... بونفيص!

استمروا يسيرون عبر البراري، حتى صادفوا نخلة مثقلة عراجينها بالرُّطَب!

علا هرجهم ومرجهم، ثم قالوا:

ـ من منّا يستطيع أن يستلّق النخلة، فيزودنا بالرُّطَب؟.

فقال لهم بونفيص:

ـ أنا الذي سوف أتسلق!

ساعد الإخوة بونفيص، على الإمساك بجذع النخلة، فوصل بسرعة إلى قمتها، وأخذ يزدرد الرُّطب الجني الجيد، أما الرديء فكان يلقي به إلى الأرض، ليأكله هؤلاء الكسالى.

أكل هؤلاء الإخوة الكسالى كثيراً، حتى انتفخت بطونهم، ثم انصرفوا، وقد ولّوا الأدبار لبونفيص، رافضين أن يساعدوا أخاهم على النزول من على النخلة.

أُطبق الأمر على بونفيص... فخذله حسه وتفكيره، إذ أنّىٰ له أن يهبط؟

حينذاك، تكلم الكبش، فقال:

ـ ابصق عليَّ، فإن وقع بصاقك على ظهري، اقفز من على النخلة، فإنك لا محالة واقع على ظهري!

بصق بونفيص، ثم قفز فجاء علىٍ ظهر الكبش، وعمل هكذا، فامتطى صهوة الكبش، مردداً أغنيته القديمة:

هيا.. فلتركض أيها الكبش، فلتركض.
الحق بهم بهم، لا بدّ أن تلحق بهم.
تجاوزهم، تجاوزهم.
هيا.. فلتركض أيها الكبش!

(4)

استمر يركض ويغني، حتى لحق بإخوته، فوجدهم على حافة بئر... اكتشف أنهم أرادوا أن يحصلوا على الماء من البئر فلم يستطيعوا. وحينما رأوه، صاحوا:

ـ ها هو ذا بونفيص، قد جاء لكي يسقينا بعض الماء من قاع البئر.

أنـزل الإخوة بـونفيص إلى جوف البئـر. فأخـذ نصف الآدمي يشرب الماء النظيف الزلال، ويمدهم بالماء المتّسخ الآسن.

فهم الإخوة صنيع بونفيص، فنهضوا، وقالوا:

ـ هيا، دعونا نتركه في قاع البئر، ما دام قد أساء الأدب.

امتطوا صهوات جيادهم، ورفضوا أن ينقذوا أخاهم من قاع البئر..

تكلّم الكبش، مرة أُخرى، وقال مخاطباً بونفيص:

ـ أنا الذي سأنقذك.

مدّ الكبش إلى بونفيص حبلاً، ثم جذبه بعد أن تعلّق به بونفيص، فنجا من قاع البئر، ثم امتطى ظهر الكبش، وهو نشوان، يترنم بأغنيته المفضلة:

هيا.. فلتركض أيها الكبش، فلتركض.

الحق بهم بهم، لا بدّ أن تلحق بهم.

تجاوزهم، تجاوزهم.

هيا.. فلتركض أيها الكبش!

ركض الكبش، وهو يحمل على ظهره بونفيص، حتى أدرك هؤلاء الإخوة. وجدهم يسيرون، فسار معهم.

(5)

بَيْناهم يسيرون جميعاً، صادفتهم (غولة).

فرحت الغولة بهؤلاء الإخوة كثيراً، وقالت لهم:

ـ أنا.. بمثابة خالتكم.

كانت الغولة هي الأُخرى لها سبع بنات. وحينما التقت بهؤلاء الآدميين، دعتهم إلى وليمة في بيتها، فجهزت لهم وجبة العشاء، ثم سألت كلّ واحد عن العلف الذي يطعمه لحصانه، فقالوا لها: الشعير. ثم قالت:

ـ وأنت يا بونفيص، ماذا تطعم كبشك؟

فأجاب بونفيص بأنه (الفول).

أعطتهم شعيراً، وأعطت بونفيص فولاً. بعدئذٍ أعدّت لهم الفراش، لكي يناموا، بعد أن فكرت في تمييزهم عن بناتها، إذ غطّت بناتها بعباءة بيضاء، بينما غطّتهم بعباءة حمراء... كلّ ذلك لكي تأكلهم.

كانت الغولة تغلي لهم بعض القطران، بينما كان بونفيص لا يزال مستيقظاً، لم ينم، لأنه كان يتسلى بالفول.. وحينما تسأله الغولة:

ـ أنت يا بونفيص، يا ابن خالتي لماذا لم تنم بعد؟

كان بونفيص يجيبها:

ـ إنها البراغيث، البراغيث كثيرة في دارك يا خالتي!.

بينما هو في الحقيقة، كان يتجسس على حركاتها، ثم إنه غافلها، من حيث لا تدري، ونهض فأبدل تلك... الأغطية: العباءة الحمراء غطى بها بنات الغولة، والعباءة البيضاء غطى بها إخوته، ثم تظاهر أخيراً بأنه استغرق في النوم.

حينما ذهبت الغولة لكي تأتي بالقطران، نهض بونفيص، وكلّم إخوته، قال لهم:

ـ انهضوا إن الغولة سوف تقتلكم.

خمد الإخوة قليلاً، انتظروها حتى أحضرت القطران، وصبّته على بناتها، بعدئذٍ نهضوا ولاذوا بالفرار.

(6)

ماتت جميع بنات الغولة. لم يبق منهن سوى طفلة واحدة، اسمها «عائشة». قالت الغولة:

ـ آه... يا أبناء الكلب!.. لقد فعلتموها إذن؟

ثم أسرعت تجري.. تقتفي أثرهم، وهي تدعو ساخطة في ما يشبه الغناء:

ـ يا حليب الثديين.. فلتجمد لهم في ركبهم!

استمرت تجري وتنشد خلفهم، وهي تقتفي أثرهم، حتى لحقت بهم وأكلتهم، ولم يبق منهم سوى... بونفيص!

عندما همت الغولة أن تفترس بونفيص، قال لها:

ـ لا تأكليني يا خالتي. دعيني أُفكر لك في الأُمور.. إنني عبارة عن بونفيص، أي نصف آدمي... ولا يوجد في لحمي وأعصابي وعظمي ما يشبع لك نهمك، ما الذي ستجدينه في جسدي حتى تأكليني؟...

وتابع بونفيص كلامه:

ـ ضعيني في قفيز، واعلفيني الأكل الجيّد: لحم الغزلان، أفخاذ الخرفان... الخ. حتى أصبح سميناً، مكتنزاً، ثم اكسري القفيز، وكليني.

راقت للغولة فكرةُ بونفيص كثيرا..أُعْجِبَتْ بها أيما

إعجاب، فما أن سمعت ذلك حتى أخذتـه، ووضعته في قفيز، حملته فوق ظهرها ومشت.

لكن الغولة أرهقها الحمل، وعندما وصلت إلى منتصف الطريق المؤدّى إلى بيتها، أرادت أن ترتاح. . . فـوضعت القفيز جانباً.

من حيث لا تدري الغولة، اختار بونفيص حجراً، وضعه في القفيز، ثم لاذ بالفرار.

(7)

كانت الغولة لا تزال تظن أن فريستهـا في باطن ذلـك القفيز، ثم أخذت تكلّمه بشماتة:

ـ لقد حصلت عليك يا ابن الكلبة!

كررت الغولة شماتتها وسخريتها، فلم تسمع صوتاً من بونفيص، ثم عادت فشتمت أبناء آدم أجمعين، وانتظرت رداً فلم يجبها إلاَّ صداها. . . حينئذ سألت بونفيص:

ـ أتراك قد نمت يا بونفيص؟

للمرة الأخيرة، لم يصلها أي رد على سؤالها. اضطرت الغـولـة أن تنـزل ذلـك القفيـز من على ظهـرهـا. لكن، لدهشتها! لم تجد فيه سوى ذلك. . . الحجـر! ولم تجد بونفيص.

قالت الغولة، وقد جن جنونها:

ـ لقد فعلها لي ابن سبع كلبات. . .

ركضت الغولة تبحث عن بونفيص وهي تدمدم:

- «... يا حليب الثديين، فلتجمد له في الركبتين...».

أدركت الغولة بونفيص، فقبضت عليه، وحملته معها إلى بيتها.

(8)

حينما وصلت الغولة إلى بيتها قالت لعائشة ابنتها:

- ها أنا ذا حصلت عليه. ابن السبعة...

ثم أخذته ووضعته في قفيز، وبدأت تؤكله لحم الغزلان، وأفخاذ الخرفان... حتى اكتنز لحماً وشحماً.

ذات يوم بادر، وخاطب الغولة، قائلاً:

- ها أنا ذا قد أصبحت سميناً مكتنزاً.

كسرت الغولة ذلك القفيز، فخرج بونفيص، وقال:

- الآن أريد أن أسألك: لماذا تريدين أن تأكليني وحدك؟ اذهبي، ونادي إخوتك وخالاتك، لكي يأكلنني معك.

فقالت الغولة:

- دعني أذبحك، قبل أن يأتي بنو جلدتي.

استدركها بونفيص قائلاً:

- لا... لماذا تقلقين نفسك هكذا؟ ها هي ذي عائشة ابنتك سوف أشحذ لها حد السكين، فأجعله حاداً، وسأعطيه لها لكي تذبحني، وحينما ترجعين، أنت وإخوتك وخالاتك، سوف أكون لحماً ناضجاً فوق الكسكسي.

قالت الغولة باهي، ثم ذهبت لكي تنادي إخواتها

وخالاتها فيما أخذ بونفيص يشحذ حد السكين، وقال لعائشة بنت الغولة:

ـ دعيني أجرب السكين في عقدك، لكي يتسنّى لك أن تذبحيني بشكل جيّد.

مدّت عائشة إليه عقدها، فيما أمضى بونفيص السكين في عنقها فذبحها، ثم قام بطبخ الوليمة، فأعدّ بلحمها وجبة الكسكسي، وفي النهاية، تنكر في لباس عائشة، متظاهراً بأنه ابنة الغولة. لقد كان بونفيص ينتظر الغولة وخالاتها وأخواتها.

(9)

وصلت الغولات، وهن يملأن الدنيا ضجيجاً، وما أن أبصرن المائدة حتى تهافتن عليها، وعلى ذلك اللحم يزدردنه، كأنهن لم يذقن في حياتهن لحماً من قبل، حتى أوشكن أن يبتلعن العظام أيضاً.

. . . لكن الغولة الأُم كانت تأكل، وتقول:

ـ هذا حساء. . كأنه حساء عائشة ابنتي.

في حين كان بونفيص، يتأوه، ويتظاهر بالبكاء (ايهىء ايهىء، ايهىء ايهىء. . .).

فتقول له الغولة. . كأنها تخاطب ابنتها:

ـ كفى، كفى بكاء يا عائشة.

استمر الأمر كذلك، حتى أتت الغولات على ذلك الطعام، فنهض بونفيص خارجاً، وصعد إلى قصبة مبنية بالزجاج، نزع عنه ملابس بنت الغولة، وأنشد يصيح:

ـ ملابس من هذه؟ ملابس عائشة العوراء!

سمعته تلك الغولة، فخرجت لتجده في قمة القصبة، يلوح بيده بملابس عائشة...

صاحت به الغولة:

ـ عملتها لي يا ابن الكلبة مرة أُخرى؟! كيف لي الوصول إليك؟

قال بونفيص من على قمة القصبة:

ـ أتريدين أن أُدبر عليك يا خالتي؟

قالت الغولة:

ـ دبّر!

قال بونفيص:

ـ اذهبي، أنت وإخوتك وخالاتك... اجلبن حطباً. ضعن الحطب تحت القصبة، ثم أشعلن النار في الحطب.

ذهبت الغولات، وفعلن مثلما قال لهن بونفيص، لكن حينما هممن أن يشعلن النار في القصبة، قال لهن بونفيص:

ـ أمسكن في أسفل القصبة جيداً، وعندئذٍ.. لا محالة إني هابط إليكن.

ما أن مسسن القصبة، حتى ماتت خالات تلك الغولة. لم تبق سوى الغولة، أُم عائشة، النار تشتعل فيها، وهي لم تمت بعد.

حيئذٍ، صاح بها بونفيص، من على قمة القصبة:

ـ شدّي إليك بطرف هذا الحبل، فسوف أرفعك عالياً إلى قمة هذه القصبة.

مدّ إليها حبلاً، فتعلقت بطرفه، ثم صار يجذبها عالياً، حتى توشك أن تصل إليه في قمة القصبة، لكن سرعان ما يردها إلى أسفل ليصليها جحيم النار.

بينا هو كان يكرر ذلك، كانت هي الأخرى تغني من فرط الرعب:

ارفعني عالياً.
أو اخفضني إلى أسفل.
إن حوصلتي.
لا محالة ستحترق!

تكررت العملية على هذا المنوال، حتى أصبحت الغولة شيئاً مشوياً. انكمشت كأنها جرادة. أطلق بونفيص الحبل، لكي تسقط الغولة في الجمر... فأصبحت رماداً.

بقي بونفيص في قمة القصبة، حتى خمدت النيران وانطفأ الجمر وعندئذٍ، نزل بونفيص من على قمة القصبة، وعاد إلى أهله، حقاً.. لقد كان نصف آدمي... لكنه استطاع بعقله أن يشق عدة دروب وعرة أمامه ومن خلفه، أفضل من إخوته مكتملي النمو، والذين ضلّوا الطريق، والتهمتهم أنياب الغولة!

المستملك

عن سلطان، كانت له زوجة. كانت زوجته هذه عاقراً، تقطن في محاذاة سوق المدينة.

وذات يوم، أطلّت من النافذة، فأبصرت نوقاً، وجمالاً جُلبت هناك للبيع. كان فيها بعير أبيض، أعجبها كثيراً، قالت لنفسها: «آهٍ.. لو رزقني ربي فألد بعيراً كهذا البعير!»..

حقق الله لها أُمنيتها، إذ سرعان ما حملت، وأصبح الناس يتداولون الخبر:

ـ زوجة السلطان قد حملت.

حينما وضعت، اكتشف الناس أن وليدها بعير...

احتار الناس في الأمر، وأصبحوا يقولون:

ـ زوجة السلطان أنجبت بعيراً!...

كبر ذلك البعير، وجاء قاصداً أباه وأُمه ذات يوم فوجدهما نائمين في مضجعهما. طفق يدق على الباب حتى أيقظهما، وقال:

ـ زوجاني.. وإلاّ أهدّ عليكما الدار.

خاف والداه منه، فقالا له: حسناً.

أخذ الوالدان يفكران فيمن يزوجانه... لكنهما استحقراه، فقالا:

ـ لنخطب له ابنة الحطّاب، فالحطاب لن يرفض طلبنا.

ذهبا إلى الحطاب يطلبان يد ابنته، فوافق في الحال ثم أقاما عرساً لابنهما البعير. دخل ذلك البعير على زوجته، وحينما خلع غلالته أصبح رجلاً!... لأنه كان مملوكاً[1]، ثم كلم زوجته، وطلب منها أن توقظه في الصباح مبكراً، فردّت عليه متسائلة:

ـ أتريدني أن أوقظك في نفس الوقت الذي يذهب فيه أبي لجمع الحطب؟

ما إن سمع البعير ذلك، حتى قال بدوره، متسائلاً:

ـ أتراك أنت ابنة حطاب؟

ردت الزوجة بالإيجاب. وما أسرع أن قام (الرجل)، فلبس غلالته فتحول إلى جمل، وفي الحال قفز عليها، فدهسها وقتلها.

في الصباح، حينما دخل الناس إلى دار البعير. وجدوا زوجته ميتة، فذهبوا وأخبروا أهلها بالأمر... ثم أخذوها فدفنوها.

أيام أُخر، ثم جاء ذلك البعير إلى والديه، مرة أُخرىٰ، وقال:

ـ زوّجاني، وإلاَّ هددت على رأسيكما الدار؟!.

خافا منه واستسلما لطلبه.

---

(1) مملوك أو مستملك: في الميثولوجيا الشعبية تعني: كائن مسكون بروح جنية.

بقيا زمناً يفكران، ثم قالا:

– دعنا نذهب لنزوجه ابنة الخباز، فهو لن يرد طلبنا.

حينما ذهبا يخطبان ابنة الخباز، وافق والدها في الحال، وأعطاهما ابنته، ثم أُقيم العرس.

دخل البعير على زوجته في دار العرس، وحينما نزع غلالته تحول إلى رجل، ثم كعادته، حين طلب أن توقظه في الصباح مبكراً، تساءلت زوجته، عمَّا إذا كان يريد أن توقظه في الصباح في نفس الوقت الذي يذهب فيه أبوها إلى المخبز؟

وما أن علم أن زوجته «ابنة خباز»، حتى أسرع لكي يرتدي غلالته ليصير بعيراً، ثم أسرع، ودهس المرأة، فأرداها قتيلة، مثلما قتل زوجته السابقة.

حينما استيقظ أهل البعير صباحاً، وجدوا زوجة ابنهم، قتيلة.. . فقالوا:

– مصيبتنا فاجعة، ماذا نفعل مع أهل القتيلة؟

ثم ذهبوا ودفنوها.

بعد أيام، أعاد البعير لأهله نفس الصنيع، قال لهم:

– زوجوني.. وإلاَّ.. هددت عليكم هذه الدار؟!

بقي الأهل يفكرون... ثم قالوا:

– ربّما يكون ابننا، البعير، قد استحقر المرأتين السابقتين، فقتلهما. دعنا نذهب ونخطب له ابنة المدير.

ذهبوا إلى المدير، يخطبون يد ابنته، فأُحرج أمام السلطان ووافق. ثم بدأ أهل البنت يبكون، ويقولون:

ـ سوف يلحق ابنتنا بالزوجتين السابقتين.

فأقاموا عرساً كأنه مأتم.

ما أن دخل البعير على زوجته الجديدة، حتى نزع، كعادته غلالته، وطلب منها قائلاً:

ـ أيقظيني في الصباح مبكراً.

فسألته:

ـ أتريدني أن أوقظك، في نفس الوقت الذي يذهب فيه والدي إلى المديرية؟

فتساءل الرجل:

ـ إذن أنت ابنة مدير؟!

فقالت الزوجة:

ـ أي نعم.

ما إن أجابت الزوجة بالإيجاب، حتى رضي عنها زوجها، فلم يقتلها... ثم نام.

عند الخيوط الأولى من الفجر، أيقظته زوجته، فقام وارتدى غلالته ليتحول إلى جمل، ثم خرج من البيت وهو يركض كعادته.

حين أراد أهل الجمل أن يتفقدوا المرأة، كانوا يظنّون أنهم سيجدونها ميتة... لكنهم، لغبطتهم، وجدوها حيّة ففرحوا، ثم أعادوا حفلة العرس من جديد، كما أن العروس أعادت لهم ما شاهدت: بأن ذلك البعير... يتحول في الليل إلى رجل!

(2)

ذات يوم حملت تلك المرأة، ثم وضعت طفلاً ذكراً، بعدئذٍ، أتت والدة ذلك البعير إلى زوجة ابنها، وقالت:

ـ يا بنيتي!... ليتك تخبئيننى، لكي أرى ابني ما شكله؟

فأجابت الزوجة، متخوفة:

ـ ربما يا خالتي، بهذا الصنيع، تسببتِ في ضياعه مني؟!.

لكن الأُم أجابت مطمئنة:

ـ خبّئيني فقط... فقط خبئيني في مكان لا يراني فيه.

فتحاملت الزوجة على نفسها، ولفّت حماتها في حصيرة، وخبّأتها فيها.

عند الليل، عاد البعير إلى بيته، وكعادته، أسرع فخلع عنه غلالته، ثم استلقى على ظهره لكي يداعب وليده على صدره. في هذه اللحظة، قامت الأم فأزاحت عنها الحصيرة قليلاً، وهي تتلصص عليه حتى رأته... فشهقت منادية:

ـ ابني؟!.

ما أن نطقت الأُم بهذه الكلمة، حتى نهض الابن، وارتدى غلالته، ولم يعد إليهم البتّة... ثم أخذت زوجة الابن تحتج على حماتها، قائلة:

ـ ألم أقل لك أيتها الخالة، إنك سوف تضيّعينه مني؟

(3)

بقيت تلك المرأة تعيش مع أهل زوجها. وفي يوم ما،

بعثت إلى جارتها - وكانت عجوزاً - أن تأتي، وتمضي معها ليلة تؤنسها فيها. قامت تلك العجوز، وقالت (في نفسها): «كيف أذهب إلى بيت ابن السلطانّ خالية الوفاض؟ دونما هدية».

ثم فكرت، وقالت مرة أُخرى (في سرها): «دعني أذهب، وأمسك له ديكاً ليلعب به».

حاولت العجوز أن تمسك بالديك، فهرب منها. أخذت تطارده، وتجري خلفه، . . . حتى أوصلها إلى شاطىء البحر، حينئذٍ أمسكت به، لكن الليل في ذلك الوقت قد خيّم، وأرخى سدوله، فلم تجد بدّاً من أن تهجع هناك، وتنام.

في منتصف الليل خرجت إلى الدنيا أفراخ مستملكة، مثل البعير ابن السلطان: . كل واحد منهم أجمل من الآخر!

أخذت تلك العجوز تتأملهم، وتحدّق فيهم، من خلف شجرة، تتأمل وهي تقول: «يا إلّهي! يا لهؤلاء الغزلان!» كانت تتأمل مندهشة، وهم لا يشعرون بوجودها. لكن. . . حينما لاحت الخيوط الأُولى من الفجر، بحثت عن أُولئك الأفراخ، فلم تجدهم، لقد اختفوا فجأة، بمجرد بداية النهار. وحينئذٍ. . عادت العجوز إلى دارها.

في الليلة التالية، أخذت العجوز معها ذلك الديك،

وذهبت به إلى بيت السلطان. بادرتها زوجة البعير، فور قدومها، وهي تسأل:

ـ لماذا، أيتها الخالة، لم تأت في الليلة السابقة؟...

أعادت عليها العجوز ما جرى لها في تلك الليلة، وحكت لها عن جمال أولئك الأفراخ، الذين رأتهم،،، وقالت على وجه الخصوص، أن واحداً منهم... يفوق أنداده جمالاً، وروعة.

حين وصلت العجوز إلى هذه النقطة، ازداد فضول زوجة البعير، قالت:

ـ أعطني، أيتها الخالة، أوصاف هذا الطير الجميل!

أعطتها العجوز الأوصاف كاملة، وحينما أعطتها تلك الأوصاف، فهمت المرأة أنها أوصاف زوجها...

فكرت المرأة قليلاً.. ثم رجعت إلى العجوز، وقالت:

ـ أيتها الخالة... خذيني معك إلى ذلك المكان، أريد أن أراه!

قالت العجوز متوجسة:

ـ خائفة أنا.. أن يكشف السلطان أمرنا... فيؤنبنا؟!

لكن المرأة لم تبال... وردّت في الحال:

ـ سوف نذهب من حيث لا يشعر بنا.

تركت المرأة ابنها نائماً، وذهبت مع العجوز إلى ذلك المكان، واختبأتا.

في نفس موعد الليلة السابقة، خرج الأفراخ يضحكون، ويلعبون، يأكلون، ويشربون.

تعرفت تلك المرأة على زوجها، وما أن نادته باسمه، حتى جاءها، قالت له:

– فليباركك الرب!.. تعال، وارجع معي إلى ابنك وبيتك.

قال:

– إذا ما أردتم أن يصلحني الرب، قولي لأبي أن يجهز لي سبعة خرفان، سبع قصاع كسكسي، سبع ملاعق، سبع أدوات غسيل، وسبعة أباريق. وأن يجهز لي من كل ما يوجد سبعة أشياء. يأتي بها إلى هنا. فإذا ما خرج رفاقي مستبشرين، ضاحكين، فرحين... فإنني سوف أرجع إليكم، أما إذا ما خرجوا مكتئبين... لا يضحكون، لا يلعبون.. فإنكم، لن تروا وجهي إلى الأبد.

(4)

رجعت المرأة مع العجوز، وأسرعت فأخبرت السلطان بالأمر. لم يملك السلطان إلاّ أن يوافق «على جميع الطلبات» التي اشترطها ابنه، ذلك المستملك، أخذوا معهم تلك الأشياء، وقصدوا ذلك المكان. اختبأوا، وبقوا ينتظرون أولئك المستملكين أن يخرجوا.

حينما خرجوا، كانوا يضحكون، يلعبون... كانوا حقاً فرحين، مستبشرين.

لم يتمالك أهل ذلك المستملك أن يهمسوا: «يا لحظّنا السعيد! ابننا.. سوف يرجع إلينا».

بعد أن أكل أولئك الأفراخ، وشربوا، قالوا لرفيقهم:

ـ الآن.. ارجعْ إلى أهلك، لقد رضي الربُّ عنكَ، وإن شاء الرب سيرضى عنا جميعاً.

(5)

رجع ذلك الفرخ مع أهله، لقد أصبح رجلاً حقيقياً، وبصفة دائمة، لم يعد يستعمل تلك «الغلالة»، لا يلبسها ولا يخلعها. حقاً.. لقد أصبح إنساناً حقيقياً مستديماً.

الفراق الأخير

عاش في زمن ما رجل، اسمه «عبدالله البري»، مهنته «حوات»(*)، لأنه يصطاد الحوت، أنجبت له ذات يوم زوجته طفلاً، فذهب إلى البحر عسى أن يأتي ببعض الحوت والقوت. بقي في البحر حتى آن أوان الليل، ولم يتحصل على سمكة واحدة، فرجع إلى بيته.

في الصباح، قصد الخباز، فوجده في مخبزه. قال له:

- سلّفني قليلاً من الخبز، أنا رجل فقير، مجرد حوّات، وغداً، إن شاء الله، سوف أرد إليك سلفتك.

أعطاه الخباز ما يكفيه من الخبز والزيت، فأسرع الحوّات بذلك الطعام، إلى امرأته وطفله.

في اليوم التالي، ذهب الحوات كالعادة إلى البحر. بقي حتى وقت حلول الليل، ولم يظفر بشيء، فمر على صديقه الخباز، وأخذ منه خبزاً وزيتاً مرة أخرى.

في اليوم الثالث، ذهب إلى البحر، طرح شباكه في

(*) في اللهجة الليبية كلمة حوات تطلق على الصيّاد بصفة عامة، لأنّ كلمة حوت تطلق على الأسماك الصغيرة وعلى الحيتان دون تمييز بينها! كما أن هذه الحكاية مزيج بين إحدى حكايات ألف ليلة وليلة وبين الخيال الشعبي المحلي المعتاد.

الماء، وحينما شده إليه وجد فيه رجلاً. قال الرجل:

- أطلق سراحي، رزقك الله الربح، لأنني لو خرجت من الماء سأموت، سوف أعطيك من جواهر البحر ما أردت، أطلق سراحي بالله.

سأله الحوات عن اسمه، فأجاب بأنه «عبد الله البحري» دهش الحوات، وقال:

- وأنا أيضاً، اسمي عبد الله البري، فلو أطلقت سراحك أين أجدك؟

قال عبد الله البحري:

- ستجدني في نفس المكان الذي اصطدتني فيه.

أطلق عبدالله البري سراح عبدالله البحري، ورجع إلى صديقه الخباز، فأعاد عليه قصته. قال الخباز:

- لو جلبته معك إلى السوق، فسوف يكون فرجة للناس،. وسوف تكسب نقوداً كثيرة.

قال الحوات:

- لقد وعدني أن يعطيني من جواهر البحر ما أريد، وأنا وعدته أن أعطيه من غلة أشجاري ما يشاء.

قال الخباز:

- اشتر له تفاحاً، واملأ به صندوقاً كبيراً، ثم أعطه له.

فعل الحوات ما قال الخباز، ذهب بصندوقه إلى البحر، ثم طفق يناديه... حتى خرج إليه، فأخذ منه صندوق التفاح، ورجع إلى البحر، ثم أفرغ الصندوق، وملأه بالجوهر الممتاز... فاستلمه عبدالله البري.

مرَّ عبدالله البريِ على الخباز، فـأعطاه ثلث الجـوهر، ورجع بالثلثين إلى بيته.

أصبح كل يوم يذهب إلى البحر، يأخذ الجوهر، ويبيعه في السوق.

ذات يوم، سرقت خزانة الحاكم، فأخبر الدلالّين بذلك، وعندما أعطى الصياد الجـواهر للدلالّين، كيِ يبيعـوها في السوق.. قبضوا عليه، وقالوا له بأنه هو الذي سرق خزانة الحاكم.

ضربوه، ثم اقتادوه إلى الحاكم. فلما رأى الحاكم ذلك الجوهر، قال:

ـ هذا... ليس جوهر خزانتي المسروق.

ثم سأل الحاكمُ الحوّاتَ:

ـ من أين أتى لك هذا، يا هذا؟

فأعاد الحوات قصته على الحـاكم، من أولها... إلى آخرها حتى قال الحاكم:

ـ هل تقبل مني نصيحة؟ سوف أُزوّجك ابنتي، وسأحتفظ بك تحت تصرفيِ، لكي لا يأخذ الناس جواهرك.

وافق الحـوات على ما قـال الحاكم، ثم أتى بـزوجتـه وابنه، وكل ما يملك من جواهر... ثم زاد الخير خيرين، فتزوج بابنة الحاكم وعاشوا معاً جميعاً.

أصبح الحوّات يـذهب كل يـوم إلى البحر... فيـأتي بصندوق مليء بالجواهر كالعادة، وذات يوم أتى به مليئاً، ومرَّ على بيت الخباز، فأعطاه كل الجواهر... وعاد خالي

الوفاض. فسأله الحاكم عن السبب، فقال الحوّات:

ـ كل الذي وجدته، أعطيته إلى صديق لي «خباز»، لأنه صنع لي صنيعاً حسناً.

أمره الحاكم أن يأتي بصاحبه الخباز، ففعل.

ـ أُريد أن أُزوجك بجارية من جواريّ، وأن تبقى معي، أنت وصديقك الحوّات.

وافق الخباز على ما قال الحاكم.

في الصباح، ذهب الحوات إلى البحر كالعادة، وخرج له ذلك الرجل البحري، وقال له:

ـ أُريد أن تنزل معي إلى البحر.

قال الحوّات:

ـ سأموت!

تركه هناك ودخل البحر، ثم خرج بسمكة، وذبحها، ونزع شحمها، وقال للرجل البري:

ـ امسح بهذا الشحم جسدك، من رأسك إلى أخمص قدميك، ثم ادخل معي، لا تخف شيئاً.

فعل الرجل البري ما قاله البحري، ثم دخل معه البحر، واقتاده إلى بيته، فأولم له وليمة فاخرة حتى وصل الخبر إلى حاكم البحر. أرسل حاكم البحر من يأتي له بإنسان البر، وحينما رأى الحاكم عبدالله البري أغرق في الضحك... لأنه وجده أبتر بلا ذيل، وقال لخدمه وحشمه:

ـ اذهبوا به إلى مكان الجواهر.

وحينما هَمَّ هؤلاء بالذهاب، قال الحاكم للحوّات:

ـ خذ كل ما تحتاج إليه من الجوهر.

عندما وصلوا، أخذ الحوّات كل ما أراد من الجوهر، ثم رجع هو ورفاقه إلى البيت، فأعطى له عبدالله البحري «جوهرة كبيرة» جداً. . . وقال:

ـ هذه جوهرة، خذها أمانة، وضعها فوق قبر النبي. ثم نهض لكي يوصله إلى البر، فالتقيا بجنازة، تنطلق من خلفها الزغاريد والضحك، فسأل الحوّات رفيقه:

ـ ما هذا؟

قال الرفيق:

ـ جنازة سيوارونها التراب.

قال الحوّات:

ـ يا عجائب! جنازة. . . وتزغردون من خلفها؟

قال الرفيق البحري:

ـ طبعاً، كيف، ولِمَ لا؟ إنها جنازة، وكانت مجردة أمانة.

قال الحوّات:

ـ يا عجائب! نحن سكان البر لا نصنع هذا الصنيع.

فقال الرفيق البحري:

ـ ماذا تصنعون. . إذن؟

قال الحوّات:

ـ نصرخ، نبكي، نلطم الخدود. . . إلخ.

قال الرفيق البحري:

ـ يا عجائب! . . .

أنتم إذن لستم مسلمين. . ولا أنتم أصحاب ودائع

واما نات ... رد لي جوهرتي أدن .

رد عبدالله البري الجوهرة لصاحبها عبدالله البحري فصاح الأخير قائلاً :-

- هدا هو الفرق بيني وبينك .

وطن الأهوال والأغوال

كان هناك رجل عجوز، له سبعة أبناء. قال له أحد أبنائه:

ـ أريد أن أتزوج يا أبي.

قال الأب:

ـ لن تتزوج، لا أنت، ولا أحد من إخوتك، حتى تأتوا لي برمّانتين، كل رمّانة فيها ثُمْنٌ من الياقوت.

نهض هؤلاء الإخوة، وعملوا هكذا، قالوا:

ـ أين نجد البر الذي فيه هذا النوع... من الرمّان؟!.

قالوا لبعضهم، فيما بينهم: دعنا نذهب ونستمر ذاهبين ونحن نسأل، ونستقصي... حتى نجد البر الذي ينبت فيه هذا الرمان... أو... نهمل، ونضيع، وتأكلنا الغربة.

سافروا جميعاً، واستمروا يطوون طريقاً.. بعد طريق... حتى وصلوا إلى أرض خلاء، فوجدوا بئراً، أخذوا منها ماء لشرابهم، وعندما همّوا أن يواصلوا المسير، وجدوا أن الطريق قد... افترقت إلى اثنتين.

قبعوا يفكرون، كيف يتجهون؟

واحد منهم، وهو الصغير فيهم، قال لهم:

– دعونا نسلك هذه الطريق

الآخرون قالوا له:

– لا، بل نأخذ تلك الطريق.

لم يتّفقوا في الرأي.

الكبار ذهبوا جميعاً في سبيل واحد، أما الصغير فيهم فسار، وحيداً، في طريق أخرى، وعمل هكذا، استمر يسير حتى وصل إلى قصر مشيد في البطحاء.

في القصر، وجد امرأة جميلة فوق الحدّ وهي متزوجة برجل غول، وكان الغول لا زال في الغابة.

عملت هكذا المرأة، وقالت للشاب:

– جنس والاّ ونس؟

قال الشاب:

– جنس وونس، خير من أبيك وأُمك.

قالت الجميلة:

– يا خسارتك!.. ما الذي أتى بك إلى وطن الأهوال والأغوال؟

قال الشاب:

– إنه المكتوب[1] أتى بي.

فقالت له الجميلة:

– إن زوجي... غول، أخاف عليك منه. عمّا قريب سيأتي وعندما يأتي... سيأكلك.

---

(1) المكتوب: في الميثولوجيا الشعبية تعني القضاء والقدر.

قال لها:

ـ افعلي بي ما تشائين.

قالت:

ـ تعال، سوف أُدخلك في باطن الأرض، سأخبّئك، لأنه على وشك الوصول، فما أن يشمّ رائحتك حتى يطقطق عظامك..

وأضافت تقول له:

ـ عندما يعود زوجي، ذلك الغول، ويصبح القصر مظلماً، ستسمع دويًا، كأنه الرّعد، خبّيء نفسك ولا تخف، حتى أضع له الطعام ويأكل، حينئذٍ، اخرج أنت، وقل له: «السلام عليك يا جدّي».

فعل الشاب كل ما قالته الجميلة. خرج إلى الغول، وقال:

ـ «السلام عليك يا جدّي».

فصاح الغول:

ـ والله لولا أنَّ سلامك سبق كلامك، فلن تسمع الجبال سوى طقطقة عظامك.

بعدئذٍ، سلّم الغول عليه، وجلسا معاً...

قال الغول:

ـ قل لي، ما الذي أتى بك إلى وطن الأهوال والأغوال؟

سرد الشاب له القصة، وكيف، وماذا قال له أبوه ...

فقال الغول:

ـ اذهب إلى قصر موجود في المكان الفلاني، حيث يوجد أخي أكبر مني سناً... فاذهب إليه واستعن عليه بالحيلة.

قال الشاب:

ـ فكّر معي... ربّما يأكلني.

رجع الغول، ووضع على الشاب أمارة، يفهمها أخوه، ثم ودعه.

انصرف الشاب، فوصل قصر الغول الأكبر، وَجَدَهُ، فسأله الغول:

ـ ما الذي أتى بك إلى بلاد الأهوال والأغوال؟.

قال له الشاب:

ـ لقد أتى بي المكتوب.

ألحّ الغول في السؤال.. قائلاً:

ـ وما... المكتوب... الذي أتى بك؟

أجاب الشاب:

ـ إنني أبحث عن البلاد التي يوجد فيها «رمّانتان»، كلّ رمّانة فيها ثمن من الياقوت.

قال الغول:

ـ تلك البلاد... بينك وبينها سبعة بحور، وسبعة برور.

وأضاف الغول:

ـ اذهب إلى تلك النخلة التي في شاطىء البحر. فيها غرابان. اجلس بجانب جذعها، ستخرج لك «هائشة» من هوائش البحر. اطلق عليها النار، فإن أصبتها،

فسوف ينقضّ عليها الغرابان من ذؤابة النخلة، وسوف يأكلانها، ثم يرجعان يتحدّثان عنك، وسوف يأخذانك بين أجنحتهما. . . وفي ساعة واحدة، سوف يوصلانك إلى البلاد التي تنبت رمّان الياقوت. خذ ما تـريد، ثم يرجعانك، في ساعة واحدة.

عندما رجع الشاب إلى المكان الذي أخذه منه الغرابان، قصد إلى قصر الغول الأكبر. وجده قد خرج إلى الغابة، كعادته، ووجد امرأتين جميلتين «فوق الحد»!

قالت له الجميلتان:

ـ لا بدّ أن تتزوجنا، وإذا لم تتزوجنا. . . سوف نحرض عليك الغول، فيأكلك.

قال الشاب:

ـ عيب، وعار عليَّ أن أتزوجكمّا. . . لأن الغول سـوف يلحق بنا. . ويأكلنا جميعاً، أنتما، وأنا.

قالت الجميلتان:

ـ سوف نصنع له ما يعميه. . . فلا يبصرنا.

أعطتاه حيـواناً شبيهـاً بالحصـان، نصفه جـان، ونصفه شيطان. ثم أعطتاه أموال الغول. . . وسافرتا معه.

أخذوا يجدون السير، حتى وصلوا إلى تلك البئر التي افترق عندها مع إخوته.

قضوا هناك ساعات القيلولـة، وجلبوا المـاء من البئر، لكن. . وقع الدلو في قاع البئر، فنزل في أثره.

في قاع البئر، وجد الشاب عذراء.. جميلة تفوق كلّ الحدود فسألها الشاب:

ـ جنس والاّ ونس؟

ردّت العذراء الجميلة قائلة:

ـ جنس وونس، خير من أبيك وأُمك.

أعجبته، فأخرجها من البئر، وأخذها مع الجميلتين الآخريين، زوجتي الغول.. رجع بهن إلى بلاده، ففرح به أبوه، وعمل له ميزاً، وأقام أعراساً لابنه ونسائه الجميلات.

جنس والا ونس[1] ؟

قديماً.. كانت تعيش أرملة عجوز مع ابنها الشاب اليتيم.. وكانت العجوز فقيرة، معدمة. كان الشاب يذهب كل يوم إلى الغابة يجلب منها الحطب، وتقعد هي تغزل الصوف.

ذات يوم، التقى ذلك الشاب بمغربي ساحر، وقال الساحر للشاب بأنه سوف يأخذه معه إلى جزيرة في عرض البحر، ويعزم[2] عليه، فيصعد الشاب إلى الجزيرة ليجلب منها عقاقير التعزيم حتى يفتحا بها كنزاً.

قال الشاب اليافع إنه يريد أن يشاور أُمه في الأمر، وحينما شاورها، أجابته بأن يدع المغربي لأنه رجل سحار، سيغرر به أو يقتله. لكن الشاب قال:

ـ إنني ذاهب مَهْمَا كلّف الأمر، فإما أحصل على شيء ما، وإمّا أموت. لقد مللت هذه الحياة البائسة.

لم يلبث الشاب أن تبع المغربي، وركبا مركباً حتى وصلا إلى الجزيرة.

قال الساحر للشاب:

ـ اغمض عينيك، سأُعزِّم عليك، لتجد نفسك في هذه

---

(1) جنس وإلاّ ونس: سؤال أُسطوري متردد كثيراً، ويعني: جن أم إنس؟.

(2) يعزِّم: يقرأ التعاويذ الدينية السحرية.

الجزيرة... فارم لي بالعشب الذي تجده لنملأ المركب.

هنيهة، ثم وجد الشاب نفسه فوق الجزيرة، وأخذ يرمي للمغربي بالعشب الذي يريد، حتى ملأ المركب. بعد أن امتلأ المركب، قال الساحر المغربي للشاب:

– ماذا ترى في هذه الجزيرة؟

قال الشاب:

– أرى هنا عظاماً آدمية... كثيرة.

فقال المغربي الساحر:

– حتى أنت سوف تصبح عظاماً، كتلك العظام.

ثم... سافر المغربي.

بقي الشاب هناك في الجزيرة، يندب حظه، ويقتات من ذلك العشب، ويدعو ربه ليل نهار.

في ليلة من الليالي نام الشاب. وحينما استيقظ، وجد نفسه في أرض خارج الجزيرة المخيفة. فقال الحمد لله الذي أخرجني من البحر إلى البر. ثم أخذ يسير ويجدُّ السير، حتى قابله قصر في البطحاء. واصل المسير فوصل القصر، ووجد ظلاً ظليلاً راقه، فنام في ذلك الظل الظليل.

يعيش في ذلك القصر سبع بنات من الجنيّات. أطلّت البنت الصغرى فيهن، فرأته نائماً تحت القصر، فقالت له:

– جنس والاّ ونس؟

أجابها قائلاً:

– جنس وونس، خير من أبيك وأمك.

مدت إليه بشعر رأسها، فتعلق به، حتى صعد إليها. .
ثم ذهبت به إلى إخواتها، وقالت لهن:

ـ وجدت هذا الإنس إنساناً طيباً، فلنجعله بمثابة أخ لنا، خاصة، ونحن بنات بدون أخ من أبينا وأمنا.

فرحن به، وبقي الشاب يأكل ويشرب معهن زمناً طويلاً، حتى وصل يوم أَرَدْنَ فيه أن يقمن عرساً لأحبابهن، في مكان بعيد، فقلن له:

ـ نحن سنذهب إلى عرس في مكان بعيد. ابق هنا حتى نرجع، اعتبر هذا القصر قصرك. لكن. . حذار، حذار أن تفتح هذا الباب.

ثم ذهبن، تركنه وحده في القصر.

حينما اختفين قال في نفسه: «لا بد أن أفتح هذا الباب الذي قلن لي لا تفتحه».

ثم قام ففتحه. وجد فيه نافذة، أطلَّ منها، فرأى بركة ماء، تسبح فيها عذارى الجن، وبعد أن يتممن السباحة يلبسن إهاب طير، ويطرن كأي طائر.

كانت فيهن واحدة جميلة «كأنها الشمس». إنها بنت سلطان الجن. . .
مرض الشاب حتى أوشك أن يموت، من أجل تلك العذراء. بقي مريضاً، لا يأكل ولا يشرب، ولا، ولا، ولا . . . حتى رجعت أخواته، فوجدنه مريضاً.

قلن له:

ـ ما بك؟

قال:

ـ سأموت. . .

قالت له الصغيرة فيهن:

ـ ألم نقل لك لا تفتح هذا الباب؟

قال:

ـ إنه المكتوب لي. . عليَّ أن أموت هكذا.

قالت الصغرى، مرة أخرى:

ـ اهبط إلى البركة التي يسبحن فيها، واختف حتى يجئن، ثم اسرق إهابها. . . فلا تستطيع أن تطير، ونأتي بها إليك.

رجع الغلام، فسرق ذلك الإهاب. . . وبقي حتى أنهت (العذارى الجنيات) السباحة، ولبست كل واحدة إهابها، إلاَّ تلك العذراء. . لم تجد سبيلاً للطيران، فبقيت هناك.

نزلت الأخوات إليها، فأتين بها إلى الشاب في القصر، فتزوج بها وبالأخت الصغرى الجنيّة، وأقمن عرساً، وعاشوا جميعاً في وئام. . . وأنجبوا الكثير من الأبناء.

بعد زمن، قال لهن:

ـ أريد أن أعود إلى وطني، أنا وزوجتاي، لكي أرى أمي أحية هي لا زالت، أم ماتت؟.

وافقت الأخوات، وجهزن له ما يلزم من المؤن، له ولزوجتيه ثم ودعنه.

رجع إلى وطنه، حيث وصل في طرفة عين. وجد أ أصبحت شحاذة، فاشترى منزلاً، وعاش مسروراً!

الإنسان

كان ماضياً في سبيله، فعثر على بئر مملوءة ماء، وكانت البئر تقع في وسط البطحاء.

في قاع البئر وجد أسداً، وثعباناً، وإنساناً. أطلّ الرجل عليهم، فقال له الأسد:

ـ أنقذني من هذه البئر، وسوف أقتلك إنْ شاءَ اللَّهُ أنْ أقتلك.

ترك الرجل تلك البئر، فوجد بئراً أُخرى، في حافتها حبل غليظ. سرق الرجل ذلك الحبل، ورجع به إلى الأسد، ثم تكلم الرجل، فقال:

ـ ربما لو أنقذتك... تأكلني؟

فقال الأسد:

ـ عليك أمان الله.

لم يملك الرجل إلّا أن ينقذ الأسد من تلك البئر، وحينئذٍ أعطى الأسد للرجل سبع شعرات، وقال للرجل:

ـ كلما وقعت في مأزق، إحرق في النار شعرة من تلك الشعرات، لكي أجيء وأُفرج كربتك.

بعد ذلك قال له الثعبان:

ـ أخرجني من هنا، فإنك سوف تحتاج لي.

لم يملك الرجل إلاَّ أن ينقذ الثعبان، وحينئذٍ أعطاه الثعبان سبع شعرات، وقال الثعبان للرجل:

– كلما احتجت، فإنني سألبي نداءك.

بعد كل ذلك، قال الرجل للرجل:

– أنقذني، فحتى أنا، إن شاء الله، سوف تحتاج لي.

فأنقذه.

* * *

بعد ذلك اليوم، جاء يوم أصبح فيه الرجل، فاعل الخير، يعاني من ضائقة مالية. تذكَّر شعرات ذلك الأسد، فذهب إلى منبسط من الأرض، وأحرق فيه تلك الشعرات، وسرعان ما جاءه ذلك الأسد، وقال:

– اطلب ما تريد!

فقال الرجل:

– إنني في ضائقة مالية.

بعد ذلك بلحظات، وبينما كان الرجل هائماً على وجهه في البرية، وجد قافلة من ريش النعام أخذها الأسد من قصر الملك - استولى الرجل على القافلة كلها، وعلى ذلك الريش كله، وأصبح تاجراً كبيراً.

* * *

ذات يوم التقى بذلك الرجل الذي أنقذه من البئر، وقال للتاجر:

– من أين لك كلّ هذه التجارة؟

قال التاجر:

– إنها من ذلك الأسد الذي أنقذته من البئر. جلب لي

عشرين كيساً من الريش، بعتها وكسبت من ذلك.

سرعان ما ذهب ذلك الرجل إلى رجال الحكومة، وقال:

ـ تعالوا معي أدلّكم على من سرق الريش. ثم اصطحب معه عيون الحاكم وجواسيسه، إلى ذلك الرجل الـذي أنقذه من قاع البئر.

أُلقِيَ القبض على الـرجـل، وحكمت عليـه المحكمـة بالإعدام، فكّر الرجل قليلاً، ثم تذكر شعيرات الثعبان، وما أن أحرق تلك الشعيرات، حتى جاءه الثعبان، وقال:

ـ اطلب ما تريد!

قال الرجل:

ـ غداً.. سوف يشنقونني.

فقال الثعبان:

ـ سوف أذهب، وأدخل على بنت الحاكم، وألتف حولها، بعدئذٍ، سوف يسألون عمّن يستطيع أن ينقذ بنت الملك من هذا الثعبان لقاء منحه نصف المملكة.

وبالفعل، صدر نفس التنبيه إلى الناس، من أجل إنقاذ حياة بنت الملك، فقال الرجل المحكوم عليه بالإعدام:

ـ أنا الذي سوف أتحكم في الثعبان.

فقال له القريبون من معرفة بواطن أُمور المملكة:

ـ لـو استـطعت أن تتحكم في الثعبـان فـإن نصف هـذه المملكة سيكون لك. وسوف يهبك الملك ابنته زوجة لك فوق كل ذلك.

لم تعد ثمة صعوبة... إذ سرعان ما جاء الـرجل إلى

الثعبان وباح له بكلمتين.. ففكّ الثعبان جسمه عن جسم الصبية، التي سرعان ما زوّجها والدها الملك، لذلك الرجل علاوة على أن الرجل قد ظفر بنصف المملكة.

إنها... حكاية الثعبان، والأسد، والإنسان!...

حكاية الوحوش

. . . ثم إن الإنسان حمل خنجراً، ومضى يركض خلف الثور. . .

ثم لحق به، ثم إنه أمسكه، وطرحه أرضاً.

ثم إن الإنسان هَمَّ أن يعمل الخنجر في عنق الثور.

حينئذٍ، صرخ الثور في وجه الإنسان.

ثم إن الثور تكلم، ثم إنه قال:

ـ يا ابن آدم!

لقد نسيت كل الخير الذي صنعته لك وها أنت قد أصبحت جلّادي

. . اعلم أنك سوف تأكل لحمي. . زد. . وكل جلدي وحوافري»

«من إيقاع قديم»

ذات مرة، اجتمع وحوش الدنيا كلهم، قال بعضهم للبعض الآخر: من منّا يقدر أن يذهب ليرى «ابن آدم»، ما شكله، ومن يكون؟. . . ابن آدم هذا الذي غلب الدنيا كلها بالحيلة.

لم يستطع أن يجرؤ أحد سوى «صيد الليل»[1]، الـذي قام، وقال لهم:

ـ أنا الذي سأذهب وأراه، وسوف أُخبركم عن رهطه، ومن يكون.

ذهب صيد الليل، من أجل التعرف على ابن آدم. في طريقه وجد بعض الحيوانات وهي تنتجع. وجد في وسط تلك الحيوانات فحلاً. كان الفحل يصيح ويبلبل.

قال له صيد الليل:

ـ هل أنت ابن آدم؟

فقال الفحل:

ـ كلّا، ابن آدم مولاي.

ذهب صيد الليل، وترك الفحل، وهو لا يزال يبلبـل. فوجد ثوراً. كان الثور يصرخ بأعلى صوته .سأله صيد الليل:

ـ أأنت ابن آدم؟

فردّ الثور على الفور:

ـ أستغفر الله.. ابن آدم مولاي وسيدي.

ذهب صيد الليل، وترك الثور لا يزال يصرخ. فعثر على حصان. كان الحصان يصهل.

كرّر صيد الليل السؤال، فسأل الحصان:

ـ أأنت ابن آدم؟

قال الحصان:

ـ ابن آدم مولاي ومالكي، ويمتطي صهوتي.

---

(1) صيد الليل: حيوان مسلح بأسهم يطلقها على أعدائه، وهو صغير الحجم ويسكن المغاور ولا يظهر إلاّ في الليل.

ذهب صيد الليل، وترك الحصان يصهل. سار حتى عثر على جمل. كان الجمل يرغو ويزبد، ويخبط الأرض بخفيه.

اشتبه صيد الليل في الجمل، فسأله:

ـ أتكون أنت ابن آدم؟

قال الجمل:

ـ ابن آدم صاحب نعمتي، وأنا لست سوى دابة من دوابه، أحمل أثقاله، ويركب على ظهري في أسفاره، وإذا لم تصدق، فانظر إلى ظهري كيف أهلكه بثقل ما يحمّلني من أوزاره.

حينئذٍ، قال صيد الليل مندهشاً:

ـ يا عجائب! من ترى يكون ابن آدم هذا الذي تحكم فيكم وفينا؟

فقال له الجمل:

ـ اذهب إليه لكي تراه. إنه هناك في خيمته.

ذهب صيد الليل، في الاتجاه الذي أشار إليه الجمل، ثم حين وصل، سأل:

ـ هل أنت ابن آدم؟

ـ نعم!

أكرم ابن آدم وفادة صيد الليل، فأعطاه حليباً، وجبناً، فأكل وشرب، وبعد أن تناول صيد الليل طعامه، سأل ابن آدم:

ـ من أين لك كل هذا الخير، الحليب، والجبن؟

فقال ابن آدم:

ـ إنه من العنز.

ثم قام ابن آدم، وأمسك جدياً، ذبحه لكي يصنع منه طعاماً لضيفه. وفيما كان الرجل يذبح الجدي، كان صيد الليل يتأمل ذلك الصنيع.

بعد أن أكل صيد الليل وجبة الغداء من ذلك اللحم، قال:

ـ من أين أتيت بهذا اللحم؟

فقال الرجل:

ـ من لحم ابن العنز.

هنا، فكّر صيد الليل، فيما لا يتجاوز جمجمته:

«كيف تعطيه العنز كل ذلك الخير، ثم يثني على ابنها فيذبحه؟ إن ابن آدم لا أمان له، وأنا شخصياً أخاف على رأسي أن يطير... فكيف الخلاص؟».

في غبش الفجر، هرب صيد الليل، ووصل إلى رفاقه الوحوش وهو يلهث من شدة الرعب.

قالت الوحوش:

ـ خبرنا، أرأيت ابن آدم؟

فقال صيد الليل:

ـ لن أخبركم، حتى تحفروا لي جحراً في هذا الجبل، ويكون الجحر نفقاً عميق الغور جداً.

بدأ الوحوش، جميعهم، في عمليات الحفر، حتى أتموا

له الجحر الذي يريد. ثم دخل صيد الليل في جحره، فشعر بشيء من الأمان.

بعد أن هدأ روع صيد الليل، قال لرفاقه الوحوش:

ـ ابن آدم هو سيد كل ما يوجد في هذه الدنيا، إنه كائن لا يقهر، بما يملك من حيلة. كل من يريد أن يبقى حياً، فليهرب حتى لا يفقد رأسه.

منذ تلك اللحظة، هربت الوحوش: كل وحش اختار له ملجأً، بعضهم سكن مغاور الجبال، والبعض الآخر حفر جحوراً في باطن الأرض... افترقوا، كل في ملجئه.

قصبة الزجاج

لم يكن له من الذرية سوى بنت واحدة، كان يحبها ولم يكن يحب أن يراها أحد، أو يتزوجها أحد. لذلك بنى لها قصبة من الزجاج وأسكنها فيها.

حتى قوت يومها، من فرط حبه لها، لم يكن يرضى أن يكون إلاَّ من لحوم الغِزلان، ولم يكن يحب أن تجهد نفسها، فأحضر لها أَمَةً تعولها وترعى شؤونها.

أثناء إحدى وجباتها ـ بينما كانت تلوك عظماً من عظام الغزلان ـ بعد أن التهمت اللحم، خطر لها أن ترمي بالعظم بعيداً... لكن العظم اصطدم بجدار القصبة الزجاجي، فأحدث فيه كوة.

نهضت الصبية لكي تطل من تلك الكوة التي أحدثها العظم فأبصرت السلطان يتبختر في حديقته بثيابه الحريرية، فضربت فيه عينها!

كيف تستطيع أن تجد السبيل... لتلحق به؟

استولت هذه الفكرة عليها مما دعاها أن تبوح بسرها إلى جاريتها. ثم طلبت منها التدبير والتفكير والمعونة، لكي تلحق بالسلطان. لكن الجارية تهيبت الأمر، تغلّب عليها الخوف من مولاها فقالت:

ـ سيدتي. . ربما فطن بنا سيدي. . .

كان حماس الصبية ملتهباً، وقد تغلب حماسها على مخاوف جاريتها، فقاطعتها قائلة:

ـ ها أنا ذا قد وجدت خلاصاً: ضعيني في صندوق، وخذيني فيه للسلطان، قولي له أن يحتفظ بهذا الصندوق عنده. قولي له بأن ابنكِ مريض، والناس يأتونك لزيارته، وأن هذا الصندوق يشغل حيزاً كبيراً، وليس لك مكان تضعينه فيه.

ما أن اهتدت الصبية إلى هذه الفكرة حتى أسرعت إلى تنفيذها، ذهبت فارتدت (حولياً) حريرياً، ووضعت في رجلها (خلخالاً)، وكانت تتمتع بشعر ناعم وطويل، ثم دخلت الصندوق، وأقفلته على نفسها!.

أخذت الجارية الصندوق إلى السلطان، وقالت له:

ـ سيدي السلطان. . اسمح لي أن أبقي عندك هذا الصندوق لمدة ثلاثة أيام، ثم أسترجعه.

وافق السلطان، ثم قام ووضع الصندوق في مخدعه وتركه.

ليلاً، بينما كان السلطان مستغرقاً في سباته العميق، فتحت الصبية صندوقها، وخرجت إلى السلطان. . جميلة كأنها ظبية، ثم طفقت تلعب معه. . . حتى خارت قواه، وغلبه النعاس، بعدئذٍ، رجعت إلى صندوقها، وأغلقته على نفسها.

في الصباح، حينما استيقظ السلطان لم يجدها بجانبه، فمرض حتى أوشك على الموت من شدة الكمد. لقد ظنها

حورية من حوريات الآخرة وليست من حوريات الدنيا.

بدأ الناس يتقاطرون على بيت السلطان لزيارته، وهم يتصايحون:

ـ لقد مرض السلطان، لقد مرض السلطان.

عزوز الستوت (أو عجوز الحيلة) كانت آخر الزائرين.

أعاد السلطان سرد حكايته على العجوز، فيما كانت الصبية تستمع لكل ما يدور بينهما من حوار.

قالت العجوز، بعد أن استمعت إلى رواية السلطان:

ـ يا بني، أَلِمِثْلِ هذه الأشياء البسيطة تحار وتمرض؟ إنها بنت الدنيا، وليست ابنة الآخرة.

فقال السلطان:

ـ إذن.. أيتها الخالة، ما الحيلة؟

قالت عزوز الستوت:

ـ يا ابني، إذا ما عادت إليك الليلة، خذ خصلة من شعرها، واربطها إلى ذراعك حتى لا تهرب منك.

ما أن خيم ليل الليلة الثانية، واستغرق السلطان في النوم كعادته، حتى خرجت إليه جميلة متألقة كما الليلة السابقة، طفقا يلعبان... يلعبان... حتى وجد انسلطان نفسه على حافة الإرهاق، فقام وأخذ خصلات من شعرها وربطها إلى ذراعه. تركته الصبية حتى استغرقه النوم، ثم قامت وقطعت شعرها، وعادت إلى الصندوق.

حينما استيقظ السلطان في الصباح، وجد نصف ذلك الشعر مربوطاً في ذراعه احتار... وقال لنفسه: ... يا

عجائب!... أين ذهبت يا ترى؟

لكن ما لبثت العجوز أن رجعت إليه، فبادرها:

ـ أيتها الخالة.. لقد فعلت كل ما أشرت لي به غير أنني لم أظفر إلاَّ بنصف شعرها.

ردت عليه العجوز قائلة:

ـ يا بني، هذه الليلة، عندما تشعر بنفسك على وشك النعاس، قم وادخل رجلك في خلخالها.

كل هذا الحوار كانت الصبية تصغي إليه.

هذه هي الليلة الثالثة، كان السلطان نائماً حين خرجت إليه، فطفقا يلعبان ويتسليان، وحينما راود النعاس عين السلطان، قام فأدخل رجله في خلخالها.

تركته الصبية حتى استغرقه النوم، ثم قامت فكسرت خلخالها نصفين، نصف تركته، والنصف الآخر أخذته معها، ثم رجعت إلى صندوقها.. كالعادة.

في الصباح، قام السلطان لكي يجد، لدهشته، نصف الخلخال في رجله، احتار... وقال:

ـ يا عجائب!... حقاً. إنها بنت الدنيا.

وحين رجعت العجوز لزيارته، بادرها:

ـ أيتها الخالة، لقد فعلت كل ما قلت لي، لكنني لم أظفر إلاَّ بنصف خلخالها.

قالت العجوز:

ـ ألم أقل لك يا بني؟ لا تخف.. إنها ابنة الدنيا، الليلة إذا ما خرجت إليك، ضع إلى جانبك فنجاناً من الزعفران، خذ طرفاً من (حوليها)، وضعه في ذلك

الفنجان لكي تتعرف إذا ما هربت، إلى المكان الذي لجأت إليه.

وكالعادة، فقد كانت تستمع إلى كل ما يدور من حوار بين السلطان وعزوز الستوت.

هذه الليلة أيضاً خرجت إليه، بقيا يلعبان ويتصارعان وحينما شعر السلطان أن قواه قد خارت من شدة اللعب، والصراع وأخذ النوم يداعب جفنيه، عمل بما أوصته به العجوز، وبعد أن نام وعلا شخيره، قامت هي وقطعت ثوبها المغموس في الزعفران، ثم عادت كالعادة، إلى الصندوق.

في صباح اليوم التالي، قام السلطان من فراشه، لكن لم يجد سوى بقايا ثوبها الملطخ بالزعفران، احتار السلطان واستغرب وتعجب مرة ومرات عديدة.

في نفس اليوم رجعت إليه الجارية لكي تسترجع صندوقها، وقالت له:

ـ شكراً سيدي، أريد أن أسترجع الأمانة.

ناولها في الحال ذلك الصندوق، ومنذ ذلك اليوم لم يرها.

حملت الصبية، ثم جاءها المخاض، فوضعت طفلاً ذكراً لفته في القماط، وناولته إلى جاريتها قائلة:

ـ خذيه وضعيه على عتبة دار السلطان.

نفذت الجارية ما أمرت مولاتها. شرع السلطان في الخروج إلى بعض أموره، فوجد الطفل. أدخله إلى جاريته، وأمرها أن تهتم بأمر الطفل وترعاه.

ذات يوم في ذات عام، كبر الطفل، أصبح صبيا رائع

الطلعة، يومها، قال السلطان لجاريته:

ـ خذي الغلام معك، طوفي به بين أهل الحي بيتاً بيتاً، ثم أخبريني، أي الناس قد فرح به واستبشر برؤيته.

أخذت الجارية الغلام، ونفذت تعليمات سيدها. طافت به بيتاً بيتاً، لكن لم يلتفت إليه أحد.

رجعت الجارية إلى السلطان وأخبرته بأن لا أحد قد التفت إلى الغلام. في اليوم التالي أمرها السلطان أن تأخذه معها إلى الحي المجاور. نفذت الجارية أمر سيدها، ولم تلبث أن عثرت على عجوزين فرحا بالغلام كثيراً، وحينما همّت الجارية بالعودة إلى بيت مولاها، قالا لها:

ـ لِمَ لا تأخذي هذا الغلام إلى ابنتنا، مولاتك التي تقطن في تلك القصبة، لكي تراه؟

ما أن وقع نظر صاحبة القصبة الزجاجية على الغلام حتى أسرعت إليه تقبله وتحتضنه، وهي تغني:

أيهذا الذي قصصت لي شعري.

يا كاسر خلخالي.

أيهذا الواضع ثوبي

في الزعفران... الخ.

رجعت الجارية إلى السلطان، وأخبرته بما جرى مع بنت القصبة.

في لحظة واحدة أدرك السلطان أنها نفس الفتاة التي كانت تزوره ليلاً، وما لبث أن بعث بالرسل يخطبون يد الفتاة من والديها العجوزين، اللذين لم يترددا في الموافقة... وهذه هي حكاية الفتاة التي وضعها أبوها في قصبة الزجاج.

جميلة وجميل

تزوجا وأنجبا سبع بنات، وكان الرجل فقيراً لا يملك ما يقيم به أود بناته.

ذات يوم، ذهب وتسول كيساً من الدقيق، أحضره إلى زوجته، قال لها:

ـ اصنعي لنا منه أرغفة في الوقت الذي تنام فيه بناتك. ثم أقسم عليها، فلا تعطي شيئاً من تلك الأرغفة للبنات، وإلَّا فإنه سوف يرمي بهن في قاع البئر.

حينما بدأت تلك المرأة في صنع الأرغفـة، استيقظت البنت الكبرى البكر، وقالت:

ـ أماه.. أريد أن أقضي حاجتي!

نهرتها أمها، وأمرتها أن تنام.

ردّت البنت البكر على أمها متحدية:

ـ إذن.. سوف أقضيها في فراشي!

رضخت الأم للتحـدي بعـد لأيٍ، وسمـحت لـهـا بالخروج، وحينما خرجت تشممت رائحـة تلك الأرغفة، فقالت لأمها:

ـ رائحة أرغفة.. يا أمي!

أعطتها أمها رغيفاً من تلك الأرغفة، وحذرتها أن لا تخبر بقية إخواتها.

عادت إلى فراشها، وأيقظت أختها التي تليها في السن، هامسة في أذنها: «انهضي، أمك تصنع الأرغفة»، نهضت تلك البنت، وأعادت نفس أسلوب أختها البكر، ثم أصبحت كل منهن تخبر الأخرى، سبعتهن... حتى أتين على كلّ تلك الأرغفة.

رجع أبوهن إلى البيت، وسأل زوجته بلهفة:

ـ أين الأرغفة؟

لم تتوان زوجته أن تجيبه:

ـ لقد أكلتها بناتك.

ما كان من الأب إلاَّ أن أخذ بناته، وألقى بهن في البئر، الواحدة تلو الأخرى، فيما كانت أمهن تبكي وتلطم خديها.

توعدها زوجها قائلاً:

ـ تسكتين أم تريدين أن تلحقي ببناتك؟؟

لم تستطع الأم أن تكف عن البكاء والعويل، فقام إليها وألقى بها في البئر، فبقيت هناك هي وبناتها.

صغرى البنات كان اسمها جميلة، وبينما كانت تلهو وتلعب، نزعت من قاع البئر حجراً.. فتكشف لها عن جحر.. ألقت نظرة في ذلك الجحر فلاحظت داراً.. أسرعت هي وبقية أخواتها وأمها ودخلن الدار، فوجدنها مليئة بالخيرات، فيها كل ما تشتهي النفس.

تلك الدار ليست سوى ملك خاص بإحدى الغولات.

وحينما رأتهن الغولة، فرحت بمقدمهن، وقالت:

– أنا بمثابة خالتكن. أقمن في هذه الدار على الرحب والسعة. أما أنا فسأقيم في الدار الأخرى المجاورة.

بقيت الأم وبناتها يتنعمن بكل أصناف الخيرات، إلى أن جاء يوم أرادت فيه الغولة أن تقيم عملاً تعاونياً للصوف.

قصدت الغولة تامزا إلى أم البنات، وقالت لها:

– أعيريني بناتك لكي يقمن لي بالعمل.

وافقت الأم، وذهبت إلى الغولة ست من بناتها السبع، ولم يبق إلا جميلة وأمها، لأن جميلة لم تعرف كيف تتعامل مع الصوف بعد.

كانت الأم قد ظنت أن بناتها قد ذهبن للاشتراك في عمل تويزي حقاً، لكنها ما لبثت أن قالت لجميلة:

– يا بنيتي، ألقي بنظرة على أخواتك، إنني لا أشعر بحركتهن ولا أسمع غناءهن.

أطلت جميلة... فلم تر إلا رؤوس أخواتها متناثرة هنا وهناك... فصرخت لأمها:

– أماه، لقد أكلت الغولة أخواتي ولم تبق إلا رؤوسهن، متناثرة...

أسرعت جميلة وأمها تفكران في وسيلة للهرب، لكن الغولة كانت بالمرصاد... فأمسكت بالأم وبقرت بطنها وهي حامل، فخرج منها الجنين طفلاً ذكراً، وفيما كانت الغولة مشغولة بافتراس الأم، هربت جميلة حاملة معها أخاها... أخيراً وجدت زرعاً نامياً طويل السوق، فاختبأت فيه، ثم أخذت تزحف على وجه الأرض لكيلا تراها الغولة،

بينما استمرت الغولة تبحث عنها دون جدوى.

بقيت جميلة تضرب في الأرض، هائمة على وجهها، حتى لاحت لها في الأفق خيام بدو، فاتجهت صوبها.

حين وصلت، وجدت جميلة كل ترحاب من أهل تلك الخيام الذين أكرموا وفادتها، ثم قاموا، ونصبوا لها خيمة منفردة، خاصة بها وبأخيها. قالوا لها:

ـ ماذا ستسمين أخاك؟

ردت على الفور:

ـ أنا جميلة.. وهو جميل.

أخذت الأيام كعادتها تكر وتفر، فكبر «جميل»، وأصبح مليحاً جميلاً حقاً، الأمر الذي أدّى إلى غيرة هؤلاء البدو منه. ذات يوم قرروا أن يذهبوا إلى الغابة، فقالوا له:

ـ تعال يا جميل، لنذهب سوياً.

ردت عليهم أخته قائلة:

ـ كلاً.

اغتاظ جميل، وأخذ يبكي، فقالوا للأخت:

ـ ما الذي تخافين أن يطرأ له؟ دعيه يذهب معنا.

فتركته أخته يذهب معهم.

ذهب معهم جميل، وحين أزفت ساعة الرجوع، أخذوه وألقوا به في قاع بئر.

ما أن وصلوا إلى النجع، حتى بادرتهم الأخت:

ـ أين أخي؟

فردوا عليها بكل برود:

ـ ألم نبعثه إليك؟ ألم يصل قبلنا؟

ولكن جميلة فهمت بأنهم قد دبروا لأخيها مكيدة ما.

كانت جميلة قد اتخذت لها رفيقة من قبل، فاصطحبتها معها، كما تسلّحت بخنجر وحبل، ثم ذهبت تبحث عن أخيها، منادية:

– يا جميل... أين أنت يا جميل...

استمرت في البحث والنداء، حتى ردّ عليها أخوها من قاع البئر.

حينما أطلّت جميلة على البئر، أبصرته، فمدت إليه الحبل وسرعان ما أخرجته، ثم عادوا جميعاً إلى خيمتهم، ولم تشأ جميلة أن تعاتب أحداً... على هذه الفعلة.

بعد أيام عادوا إلى جميل، وقالوا له:

– جميل.. هيا بنا نذهب إلى الغابة.

قال جميل:

– باهي.

تدخلت أخته جميلة، وقالت:

– كلاّ.

بدأ جميل (كعادته) يبكي ويصرخ، ثم غافل أخته، وهرب للالتحاق بهم.

اغتمت جميلة، انتابها الحزن، بقيت حائرة حتى رجع رفقته، فبادرتهم بالسؤال:

– أين أخي؟؟؟

أجابوها بنفس البرود:

– ألم يرجع بعد؟ لقد ظنناه رجع قبلنا.

أدركت جميلة، بالطبع، سوء طويتهم للمرة الثانية.

اصطحبت معها رفيقتها، وتمنطقت بالخنجر والحبل، ثم ذهبت تبحث عن أخيها، وهي تنادي . . . حتى وجدته مقيداً في أرجل الثيران، والثيران تجُرْجِرُهُ. أسرعت فقطعت تلك القيود، وأطلقت سراح أخيها، ثم رجعوا إلى خيمتهم.

استمرت الأيام في عاداتها، وكبر جميل، وأصبح يميز بين الخير والشر. ذات يوم أصبح يفكر مع أخته في طريقة تخلصهما من أشرار تلك الخيام؟ . . . لكن أخته ما لبثت أن قالت:

ــ ها أنا ذا قد وجدت طريقة اهتديت إليها: دعنا نستضيفهم على وليمة كسكسي باللحم.

ثم أسرعت هي وخادمتها في تجهيز الوليمة. حينما وصل الضيوف، واستعدوا لالتهام الطعام، قام جميل وقال لهم في ما يشبه الهزل:

ــ تناولوا الطعام معاً وفي وقت واحد، بحيث لا يسبق أحدكم الآخر.

أما جميل فلم يجلس ليأكل معهم، تظاهر بأنه مشغول بخدمتهم، فلم يكمل الضيوف اللقيمات التي التهموها حتى سقطوا جميعاً ميّتين من السم الذي وضعته لهم جميلة في الأكل. بعدئذٍ قال جميل لجميلة:

ــ دعينا نتخلص حتى من هذه الخادمة.

فقالت الأخت:

ــ لا . . يا أخي، هذه امرأة مسكينة، ما الذي جنته حتى نقتلها؟ . . . دعها تعيش معنا.

بقيت تلك الخادمة معهما، ثم انتقلوا بخيمتهم إلى مكان

آخر عاشوا فيه وحدهم.

تلك الخادمة كانت امرأة مملوكة، وما أن أدركت أنها لم تُقْتل، حتى قالت لجميلة:

ـ تعالي لكي أريك المكان الفلاني...

فقالت جميلة:

ـ لأجل ماذا؟... ماذا هناك؟

لم تشأ الخادمة أن تخبرها بالسر.

قالت الخادمة:

ـ سأخبرك عندما نصل إلى هناك.

فقالت جميلة مذعنة:

ـ باهي!

ذهبتا سوياً، وحينما وصلتا المكان المقصود، كشفت الخادمة لجميلة... كنزاً!

فرحت جميلة بذلك الكنز، ثم قالت المرأة المملوكة:

ـ إنني لا أملك من حطام هذه الدنيا إلاَّ أنتما.. أنت وجميل.. فخذي هذا الكنز لك ولأخيك.

أخذت جميلة ذلك الكنز، ورجعتا معاً، لكن جميلة لم تشأ أن تخبر أخاها بأمر ذلك الكنز، لأن جميلاً لا يزال يافعاً.. غلاماً مراهقاً.

مرت بعض الأشهر، قالت جميلة لجميل:

ـ أخي، لو أعطيتك نقوداً.. ماذا ستفعل بها؟

فردّ جميل على الفور:

ـ سوف أشتري بها كرة لي، وكرة لك، وزربوطاً لي، وزربوطاً لك!...

فقالت جميلة في خاطرها «أخي لا يزال صغيراً».

أعادت الشهور تواليها.. كرّها وفرّها، مما جعل جميلاً يزداد نضجاً وتعقلاً. فقالت له جميلة مرة أخرى:

– أخي، لو أعطيتك دراهم.. ماذا كنت ستفعل بها؟

فقال جميل بعد طول تفكير:

– سوف أبني بها بيتاً، وسوف أشتري بها رؤوساً من الغنم والماعز، وأخرى من الجمال والبقر.

فقالت جميلة في خاطرها «يا لفرحتي الكبيرة.. أخي قد كبر ونضج، وأصبح رجلاً».

ومن توها، قامت جميلة، وأعطت له شيئاً من مال ذلك الكنز.

ما أن استلم جميل ذلك المال من أخته، حتى ذهب، واشترى بيتاً، وقطعاناً من الغنم والماعز، ورؤوساً من الجمال والبقر.

الحـــرام

كان كلّ يوم يدعو ربّه، ويقول: «يا ربّ هبني محبوبين[1] من الذهب، واحداً أصدّقه، وواحداً أصرّفه». . . حتى جاء يوم من الأيام، وجد فيه الرجل المحبوبين، وفي توّه ذهب إلى شيخ أعمى، وقال له:

ـ يا جدي، خذ هذا المحبوب.

قال الشيخ متسائلاً:

ـ وأين وجدت هذا المحبوب؟

أجاب الرجل بأنه كل يوم يدعو ربه أنْ يهبه محبوبين، ليتصدق بواحد، ويصرّف واحداً. طلب الشيخ من الشاب أن يمدّ إليه يده ليعطيه الفاتحة، فمد الشـاب يده للشيـخ الذي سرعان ما أمسك به، وبدأ الصراخ طالباً النجدة.

جاء الناس سراعاً، وكثر الزحام، فسألوا الشيخ:

ـ ما سبب صراخك؟؟

قال الشيخ:

ـ هذا الرجل قد سرق منّي محابيبي الذهبية.

---

(1) المحبوب: عملة تركية أخذت هذا الاسم في عهد الاستعمار التركي.

فسأل الناس الشاب في غضب:

ـ لماذا تسرق محابيب هذا الشيخ؟

قال الشاب:

ـ إنهما محبوبان لي، ظللت الأيام والليالي أدعو ربي أن يرزقني بهما، فاستجاب، ثم ادّعى هذا الشيخ أنهما له، فاستولى على رزقي.

قال الناس للشاب:

ـ أليس من العار عليك ـ إنه عجوز، وأعمى لا يبصر، فتنتزع منه محابيبه؟

أقسم الشاب قائلاً:

ـ والله، ثم بالله، إنني وجدت هذين المحبوبين لأنني دعوت ربي أن يرزقني بهما، فاستجاب لي.

قال الناس للشاب:

ـ لقد كذبت. فأنت مجرد زوفري!

طفق الشاب يبكي، ثم حطّ عينه على ذلك العجوز الأعمى، فحين رجع العجوز إلى بيته دخل في أثره، ثم أنشد الرجل يقول لنفسه:

«لقد استوليت على محابيب المغفل»، بينما كان الشاب قد اختبأ بجانبه، وأخذت العجوز نشوة الفرح، فطفح بما طفح:

ـ الآن... أنا الباشا!.

وقام العجوز فأخرج بزة الباشا، فلبسها، وأخرج ما لا يعدّ ولا يحصى من المال، وأنشد يقول:

ـ هـذه شهريـة الحاكم الفـلاني، وهذه شهـرية المـأمور العلاّني، أنا... حاكم جميع الحكام.

أخيراً.. وضع جميع ذلك المال تحت الحصير، وصعد إلى سدّته، ونام.

وسرعان ما أسرع الشاب وأخذ مـال العجوز. وحينمـا استيقظ العجـوز في الصبـاح، وجـد جميع مـالـه قـد اختفى... أخذته نوبة نواح طويلة، ثم قال:

ـ إنها دعوة ذلك الرجل، لأنني ظلمته.

كان الشاب يسترق السمع، فقال عجوز آخر أعمى:

ـ أنت جاهل لا تفقـه في شيء، أنا عنـدي مخبأ تحت الأرض لا أفتحه إلاّ عندما أقفل على نفسي الدار.

كان الشاب ما زال منصتاً للحوار، فقال في ذات نفسه: «والله ثم بالله، لأصلبنّ كل أولئك الشيوخ العميان جميعاً، وفي مرة واحدة».

بقي بجانبهما، ثم رجـع العجوز الجـديد إلى منـزله، فدلف الشاب في أثره من حيث لا يشعر به. هشّ العجوز بعصاه يمنة، ويسرة، ثمّ أخرج زيره، وملأه بالنقود. وحينما أراد أن ينـام، أخذ الشـاب عصاه ورمـاها فـوق الجدار، هامساً: «نم يا ابن الكلب»، بعد أن نـام الشيخ، أسـرع الشاب إلى تلك النقود.. فأخذها.

حينمـا استيقظ الشيخ في الصبـاح، وجـد نقـوده قـد اختفت، ولم يجد عصاه، فطفق المسكين يصرخ، ثم رجع إلى صديقه العجوز الأول، وقال:

ـ والله، إن الذي أخذ نقودك قد أخذ نقودي.

ثمة شيخ آخر أعمى ـ قال لهما:

ـ أنتما لا تعرفان كيف تخبئان النقود. إن «جردي» المرقع هذا الذي ألبسه... كل رقعة فيه بـ(ليرة). هل يوجد في الدنيا من يطمع فيه ويسرقه منّي؟

كان الشاب كعادته، يسترق السمع، فذهب إلى ذلك العجوز وقال:

ـ عندي أمانة، وأنا ذاهب إلى الحج، لكنني علمت أنك شيخ تائب، فسوف أتركها عندك.

قال الشيخ:

ـ عليك أمان الله. هاتها.

ذهب الشاب إلى دكان نجّار، وقال له أُريد عصا أضع فيها علبة مليئة بالليرات.

صنع له العصا والعلبة، وأخذها الرجل فملأها بالنحل الجائع ثم ذهب بها إلى ذلك الشيخ، وقال:

ـ خذ هذه الأمانة، واحتفظ بها عندك، فإذا متّ فهي لك وإذا كتبت لي الحياة فهي باقية لي.

وافقه الشيخ الأعمى، ثم اختبأ الرجل بالقرب منه.

هشّ الشيخ بعصاه، يمنة ويسرة، فلم يتحسس أحداً، ثم عمل هكذا، وفتح تلك العصاة فخرج منها النحل الحبيس الجائع فلسعه ولذعه، وعمل فيه ما لا يعمل... والشيخ يبكي ويصرخ ويخرج من الأصوات قبيحها.

وخلع جرده وأخذ يبعد به النحل عنه حتى تعب وغلبه النوم العميق.. ولمّا استيقظ بعد ذلك وجد أنّ جرده قد اختفى...

في الصباح، ذهب إلى أصدقائه الشيوخ العميان، قال لهم:

– لقد حصل لي عين الذي حصل لكم. من جاءكم جاءني...

وكان الشاب يستمع إليهم.

قال لهم شيخ آخر:

جميعكم جاهلون، لا تفقهون شيئاً. أنا عكازي هذا مليء بالليرات. من ذا الذي يخطر بباله أن يفكر ويقول بأن هذا العكاز كله... ليرات!

قالوا له:

– إنه، والله، لهذا عين الحق.

كان الشاب، كالعادة، يتصنت كل ما يقولون، وهكذا... فعندما قام ذلك الشيخ للصلاة تتبعه، فدخل الشيخ إلى المسجد وابتدأ الصلاة، بعد أن وضع عكازه جانباً. أخذ الشاب ذلك العكاز، ومضى به. بعد أن أتمّ الشيخ صلاته أراد أن يتوكأ على عكازه، فلم يجده... فابتدأ النواح.

حينما رجع الشيخ إلى زملائه قال لهم:

– إن الذي أتى عليكم، قد أتى عليَّ.

قال الشيوخ جميعاً:

– هذا الخنزير.. الذي استولى على مالنا... لا بدّ أن نقبض عليه.

اجتمع الشيوخ العميان جميعاً، وابتدأوا الحراسة كرجل واحد حتى جاء اليوم الذي عثروا فيه على الذي سلبهم

وأهانهم، قال الرجل في ذات نفسه «أخذت مالهم، فلم لا أطعمهم؟».

ذهبوا معه إلى دكان السنفاز، فاشترى لهم بعض السفنز، فأكلوا وقالوا: هذا رزقنا... ثم قبضوا عليه، وبدأوا يتصايحون حوله، فهرع رجال ودوريات الحكومة، حيث أخذوهم جميعاً إلى مقر الحاكم.

قالت لهم الحكومة:

ـ لم ألقيتم القبض على الرجل الذي أطعمكم؟

قصوا على مسامع الحكومة قصتهم تفصيلاً، فقال لهم الحاكم:

ـ كيف أدركتم أنه هو الرجل الذي سلب رزقكم؟

قالوا:

ـ عرفناه حين اشترى لنا السفنز. إذ لم يهبط في حلوقنا وكروشنا.

فقال الحاكم لذلك الرجل الشاب:

ـ قل الحق.

فقال الرجل الشاب:

ـ والله، ثم بالله لا أقول إلاّ الحق.

ثم أمره الحاكم أن يتكلم، فقال:

ـ كنت في السابق فقيراً، وكنت كل يوم أدعو الله أن يرزقني محبوبين، واحداً أصدّقه، ووحداً أصرفه. ذات يوم وهبني ربي محبوبين، فوجدت هذا الشيخ الأعمى، وقلت له:

ـ خذ أيها الشيخ هذا المحبوب. فسألني من أين لي هذا؟ قلت: لقد دعوت الله فأعطاهما لي، لكنه أمسك بي، وأخذ يصرخ فهرع الناس وانتزعوا مني المحبوبين... وضربوني وأعطوهما للشيخ، ثم قالوا لي: إن الله لا يرمي بالمحابيب الذهبية يا زوفري.. اذهب واسرق بعيداً يا كلب الكلاب... فذهبت من هناك باكياً، ثم تتبعت هذا الشيخ فدخلت معه إلى بيته ورأيته، وقد أنشد يقول: «اليوم قد غررت بذلك الرجل، نزعت منه ذهبه...» ثم أخرج مالاً، ووضعه بجانبه وهو يقول: «أنا.. الباشا»، وبدأ يوزع ماله.. فهذه شهرية القبطان الفلاني، وهذه للمأمور العلاني، ثم نام. فأخذت جميع المال الذي وجدته عنده، وفي الصباح جاء إلى أولئك العميان، الذين أمامك، وسرد عليهم قصته تفصيلاً،... فسرقتهم جميعاً.

بعد طول إنصات قال الحاكم:

ـ اذهبوا أنتم إلى بيوتكم، أمّا أنت، أيها الشاب، فكل رزقهم جميعاً، لأنه رزق حرام عليهم جميعاً.

عائشة

تداول الناس في بداية الزمان، قصة صبية ماتت أمها، تزوج أبوها امرأة أخرى، وأنجبت تلك المرأة بنتاً. . وكانت امرأة الأب لا تحب تلك الصبية.

ذات يوم أحضر الوالد سمكاً، وفيما كانت الصبية تنظف السمك، كلمتها سمكة، وقالت:

ـ أطلقي سراحي يا عائشة، فسوف أرد لك الجميل ذات يوم.

أطلقت عائشة سراح السمكة، وحينئذٍ أعطت السمكة لعائشة سبع زعانف، وقالت لها:

ـ حينما تحتاجين، وتكونين في ضائقة، أحرقي زعنفة، لكي آتي إليك، وأدبر لك الخلاص.

كانت زوجة الأب تفكر في مكيدة للتخلص من عائشة. صنعت لها خبزاً، ووضعت في الخبز صاعين من الملح. ثم أوصت الجيران ألاّ يعطوا لها ماء حين تظمأ.

لم يبق من الجيران غير عجوز، لم توصها زوجة الأب، عثرت عليها عائشة، وسألتها قائلة:

ـ أعطني يا جدتي ماء.

ردت العجوز، وقالت:

ـ . . . لن أسقيك حتى تنظفي من شعر رأسي حفنة من الصئبان، وحفنة من القمل.

رضخت عائشة للأمر، وبعد أن فعلت ما طلبت منها العجوز، أعطت لعائشة (جردلاً) كي تستخرج به الماء من البئر.

في تلك الأثناء.. جاء (موسى وعيسى) فوق خيولهما المطهمة وقالا لعائشة:

ـ اسقينا واسقي خيلنا!

سقتهما عائشة، وسقت خيلهما، قبل أن تسقي نفسها.

ثم جاءت (تفاحة)، وقالت لعائشة:

ـ اسقيني!

فسقتها!

ثم جاءت (برتقالة)، وقالت:

ـ اسقيني!

سقتها، وأخيراً شربت عائشة. وفيما كانت تهمّ بالذهاب، قام عيسى، وقال:

ـ ادع يا موسى!

بادر موسى بالدعاء لعائشة، قائلاً:

ـ جعلك الله تمشين، والحرير يتهدل بين رجليك.

بعدئذٍ، قام موسى وقال:

ـ أكمل يا عيسى!

أكمل عيسى الدعاء بالقول:

ـ جعلك الله تضحكين، والمطر يهطل، وتبكين والتبر يتناثر.

ثم قامت التفاحة، وقالت:

ـ فلتكوني مثلي فاتحة.

وقالت البرتقالة:

ـ كوني مثلي براقة.

كانت زوجة الأب تنتظر أن يأتوا لها بخبر موت عائشة، لكنها لدهشتها، لم تلبث أن دخلت عليها، والحرير يحف بين رجليها، المطر يهطل، والتبر يتناثر... فائحة مثل تفاحة، براقة كبرتقالة.

ما أن لاحظت زوجة الأب ذلك، حتى قالت لنفسها:

ـ آه... أُمّاه!... ما دام الأمر كذلك، ما دامت ابنة الكلبة قد رجعت بكل هذا الخير، فإنني سأقوم بنفس الصنيع مع ابنتي.

إثر ذلك، قامت المرأة، ووضعت صاعين من الملح في خبز ابنتها، وأوصت أهل الجيرة ألاَّ يعطوا ابنتها ماء كي تشرب، ما عدا تلك العجوز، فلم توصها.

عثرت تلك الصبية على تلك العجوز، فبادرتها على الفور:

ـ أيتها العجوز.. أعطنى سطلاً لكي أجلب الماء من البئر.

ردت عليها العجوز:

ـ حتى تنظفي من شعر رأسي، حفنة من الصئبان، وحفنة من القمل.

فقالت الصبية:

ـ انزع منك سعدك وبختك أيتها الشمطاء!

ثم قامت، وطرحتها أرضاً، ونزعت منها السطل.

حين بدأت في استخراج الماء، وقف بمحاذاتها (موسى وعيسى) بخيولهما المطهمة، قالا لها:

– اسقينا، واسقي خيلنا.

ردت الصبية:

– سأسقي سوء طالعكما...

وأضافت الصبية متهكمة:

– هل أطعمتني أمي صاعين من الملح لكي أسقيكما؟

ثم جاءت التفاحة، وقالت:

– اسقيني!

– سأسقي حبنك! «ردت الصبية».

ثم جاءت البرتقالة، وقالت:

– اسقيني!

أجابتها الصبية:

– سأسقي ضعف النحس!

شربت الصبية، وطوحت السطل بعيداً.. ثم وهي تهمّ بالرجوع، قام عيسى وقال:

– ادع يا موسى.

فدعا موسى، قائلاً:

– جعلك الله تمشين والسخط والجليد يتساقط، وتبكين وبولك يتقاطر!

ثم قامت التفاحة وقالت:

– كوني مثل تفاحة صائصة!

ورددت البرتقالة نفس الدعاء.

هرعت أم الصبية لاستقبال ابنتها، فوجدتها قد جاءت لها بالشر: الثعابين ملتفة على ساقيها و(السخط) يتساقط حولها... لم تجد ما تخبر به الناس.

بقيت زمناً طويلاً تفكر... وفي يوم من الأيام جاء السلطان خاطباً يد عائشة لابنه، فقامت زوجة الأب، وأعطته ابنتها هي وحجبت الطلب عن عائشة.

حملت الصبية من ابن السلطان، فذهبت عائشة لتزورها، وحين آن أوان المخاض... ولدت ثعباناً!

قامت عائشة بإخفاء الثعبان في جزة صوف، ثم ذهبت إلى بيتها، فيما بدأ الناس يوشوشون: «زوجة ابن السلطان ولدت ثعباناً... زوجة ابن السلطان أنجبت ثعباناً...».

في يوم من الأيام، كبر الثعبان ونما وترعرع، ثم نطق فتكلّم وقال:

ـ علي، ابنكم، يريد الختان! خاتنته قابلته... عائشة بنت الحوّات!

أسرع الناس يبعثون لعائشة أن تأتي... وتختن الثعبان، فقالت بأنها سوف تفكر في الأمر.

بدأت عائشة تفكر... فكرت كثيراً، وأخيراً قامت وألقت إحدى تلك الزعانف في النار فجاءت لها السمكة فبادرتها عائشة بأن «فكري لي أيتها السمكة، إنني خائفة من الثعبان».

أجابتها السمكة:

ـ اذهبي ولا تخافي البتة.. قولي لهم أن يأتوك ببلطة، ما

أن تبصري ذيله.. اقطعيه، ثم ردّيه في جزة الصوف.

ذهبت عائشة، ونفّذت ما قالته السمكة.

مرَّت أيام، وكرَّت شهور وأعوام... فازداد الثعبان نموّاً، غلظ عظمه، واكتظَّ لحمه وشحمه، فنطق مرة أخرى، وتكلّم للناس وقال فيما قال:

ــ علي، ابنكم، يحتاج إلى امرأة... قابلته خاتنته: عائشة بنت الحوات!!

أسرعوا مرة أخرى يبحثون عن عائشة، يخطبون يدها، فطلبت أن يمنحوها فرصة للتدبر في الأمر.

فكرت عائشة في الأمر المذهل قليلاً، ثم ما لبثت أن ألقت زعنفة أخرى من زعانف تلك السمكة في النار، فجاءتها السمكة مسرعة كي تبادرها عائشة:

ــ أنجديني أيتها السمكة العزيزة: كيف لي أن أتزوج ثعباناً؟

أجابت السمكة، غير عابئة بالأمر:

ــ لا بأس.

أفزعت السمكة عائشة من هذه الإجابة الغريبة، فقاطعتها قائلة:

ــ لا بأس؟ كيف؟ ألا يبتلعني؟

قالت السمكة بكل هدوء السمك:

ــ كلاّ، سوف لن يأكلك. وها أنذا أهديك إلى حيلة:

«اشترطي عليهم أن يأتوك بحمار محمل بالحطب، وسبعة قمصان لك، وسبعة أخرى للثعبان. كذلك واشترطي عليهم أن يسكنوك في مسكن خاص. بعد أن

يدخلوك إلى دار العرس، اصنعي لهيباً كبيراً، ثم أحرقي فيه تلك القمصان: أنت ترمين إلى اللهيب بقميص من قمصانك، ويفعل الثعبان بقميصه نفس الصنيع... هكذا: قميص تلو قميص، حتى تأتي النار على كل القمصان جميعاً، وفي أثناء ذلك رددي هذه الكلمات: (ارم ثوباً، وسأرمي بثوب.. استسلم يا ولد السلطان)، رددي ذلك سبع مرات، وما أن تأتي النار على كلّ تلك القمصان حتى يتحول ذلك الثعبان إلى رجل... إنسان».

حين رجع الناس إلى عائشة، ليستقصوها عن رأيها، أجابت إنها قد قبلت، واشترطت عليهم (عين شروط السمكة)، فقالوا لها «حسناً».

بعدئذٍ، أخذوها إلى بيت الزوجية، وصنعت ذلك اللهيب، وتقابلت عليه هي والثعبان، بدآ يحرقان تلك القمصان، فيما أخذت عائشة تردد:

ــ ارم ثوباً، وسأرمي ثوباً.. استسلم يا ولد السلطان.

ما أن أتت النار على كلّ تلك الأثواب، حتى أسلم أو استسلم الثعبان! لقد لاح شاباً وسيماً كأنه ظبي من الظباء!

تلك الليلة، بقي أفراد أُسرة الثعبان ساهرين.. لم تذق جفونهم طعماً للنوم، وعلى طول تلك الليلة كانوا يقولون: «ويلنا أيكون قد أكلها؟؟».

لكن.. ما أن لاحت الخيوط الأُولى من الفجر حتى خرج إليهم رجل كأنه... غزال، الأمر الذي أفرحهم، وأدخل الغبطة في نفوسهم، ثم قاموا وأولموا الوليمة

الكبرى، وأقاموا عرسا لمدّة سبعة أيام، وسبع ليال، وأكرموا كلّ الأحباب.

ذات يوم جاءت زوجة الأب إلى عائشة، وقالت لها: «عائشة يا ابنتي، هيا بنا نذهب إلى الغابة لنأتي بالحطب»، وافقت عائشة على اقتراح زوجة أبيها، ثم أخذتا حمالات الحطب، وذهبتا لتحتطبا.

بعد أن ملأتا تلك الحمالات، قالت زوجة الأب لعائشة:

– عائشة، ابنتي، تعالي أسوّي لك شعرك.

استحسنت عائشة هذه الدعوة من زوجة أبيها، وتركت المرأة تعبث بشعرها إذ سرعان ما استسلمت هي للنعاس.

ما أن أحسّت هي بأن عائشة نامت، حتى نهضت، وقفلت راجعة، تاركة عائشة نائمة وحدها في الخلاء الخالي.

حين استيقظت عائشة لم تجد في جانبها أحداً، تلفتت فلم تلحظ على مقربة منها إنساً... نادت بأعلى صوتها فلم يجبها سوى صدى صوتها.

حينذاك، أدركت عائشة المصير الذي آلت إليه، فطفقت تبكي حظها.

في تلك اللحظة حطّت إلى جانبها عصفورتان. كانت العصفورتان قد دخلتا في عراك مرير، وكانت إحداهما قد أوشكت على الموت فأخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة. لاحظت عائشة ذلك، فأسرعت وقطفت وردة، وبدأت تشممها للعصفورة المسكينة التي سرعان ما استعادت حيويتها ولم تمت.

احتفظت عائشة بتلك الوردة، ووضعتها في حزامها ثم استأنفت بكاءها وعويلها...

في لحظة من تلك اللحظات المرة حركت جفونها، فأبصرت خياماً من خيام البدو، فاتجهت صوب تلك الخيام.

كانت تلك الخيام تعيش مأتماً.. مأتم شاب اختطفه الموت مخلفاً سبع أخوات، كان جثمان الشاب لم يوار التراب بعد، لأن أخواته كن قد استغرقن في البكاء.

حين وصلت عائشة، وجدت جثمان الشاب مطروحاً فوق الأرض، فتذكرت تلك الوردة، حيث أخرجتها من حزامها، وقرّبتها من أنف الشاب الذي سرعان ما شهق وزفر، ودبت الحياة في أعضائه مرة أخرى لكي يرى أخواته ما زلن يبكين، فصرخ فيهن قائلاً:

ـ اسكتن!.. كفى صراخاً.

أبصرت الأخوات أخاهن، وقد عاد حيّاً، فأسرعن يعانقنه ويقبلنه، لكنه قال:

ـ بل قبّلن واشكرن هذه... التي بعثتني حياً.

التفتت الأخوات إلى عائشة، وأسرعن يعانقنها، ثم أقام الجميع الولائم والتكريمات، فيما بادر الشاب إلى عائشة فتزوجها.

الآن احتاج زوج عائشة الأول إلى عائشة، فلم يجدها، فأخذ معه غراباً وطفق يبحث عنها حتى عثر عليها، فعرف أنها زوجته. ما أن علم بأمر زواج عائشة، حتى دخل في

خصام مع زوج عائشة الجديد: هـذا يقول إنهـا زوجتي، وذلك يدعى الادعاء نفسه!

سمع الغراب بموضوع الخصام، فنطق وقال:

ـ يا عائشة كوني عائشتين، ويا أيها الهودج كن هودجين.

انقسمت عـائشة إلى اثنتين، وأخـذ كل زوج عـائشتـه وهودجه!.

حبحب رمان

جلس الرجل العاقر على قارعة الطريق، يخطط على الرمل بعود في يده، مستعيناً به على التفكير.

مرّ بالرجل العاقر رجل آخر وقال:

ـ «يا وُدّي . . ما لي أراك هكذا تفكر؟».

قال الرجل العاقر:

ـ «يا ودّي . . ليس لدي أولاد».

قال الرجل الآخر:

ـ «سوف أعطيك دواء، والبطن الأُولى لي».

قال الرجل العاقر:

ـ «باهي، ليتني أستطيع أن أنجب أولاداً».

أعطاه دواء، أكلته زوجته فحملت، ثم ولدت بنتاً.

كبرت البنت، وخرجت تلعب مع الأطفال في الشارع، بدأ ذلك الرجل الآخر يأتي إليها (إنه غول، ولكنه يبدو على هيئة إنسان)، يقرصها في أذنها بشدة ويقول لها: «قولي لأمك تلك الكلمة!»، لكن البنت تنسى كلّ مرة.

ذات يوم قالت الأُم لابنتها: «تعالي يا ابنتي لأغسل لك رأسك»، وبينما هي منكبة على ابنتها، لاحظت أذنها تنزّ

بالقيح. فزعت الأُم وصاحت بابنتها: «لماذا أذنكِ هكذا؟ هل وقعتِ عليها؟ هل ضربك عليها الأطفال في الشارع؟»، ردت البنت قائلة، بعد أن تفكرت ذلك الرجل: «إيه.. يأتيني رجل غريب، يقول لي كل مرة: قولي لأمك تلك الكلمة، لكنني في كل مرة أنسى». عملت الأُم هكذا وقالت: «يا بُنَيَّتي.. إذا عاد إليك ذلك الرجل قولي له ـ من ثَمَّ إلى ثَمَّ ـ قالت لكَ أمي».

طفقت الأُم تبكي مع زوجها إلى حد العياء، ثم قامت وألبست ابنتها أحسن ما لديها من ملابس، ثم خرجت البنت إلى الشارع لتلعب مع الأطفال.

رجع الرجل إلى البنت وقال لها:

ـ «قولي لأمك تلك الكلمة».

ردت البنت بسرعة:

ـ «من ثَمَّ إلى ثَمَّ، قالت لكَ أمي».

أسرع الرجلِ إلى البنت ووضعها على كتفه، أخذها وذهب بها بعيداً، ثم وضعها في قصر، وسماها (حَبْحَب رُمان).. ذلك الغول.

كان الغول يخرج للصيد، فيأتي إليها بلحم الغزلان ولحم الأرانب وكل طعام طيب ولذيذ، أما هو فكان يكتفي بأكل لحوم البشر.

وللغول فرس في داخل دار مغلقة، اسمها (مرايا)، نصفها جان ونصفها شيطان، تأكل هي الأُخرى عظام

البشر، لقد أصبحت غولة، ولدى الغول ولد آخر، وضعه في دار، ووضع على ذؤابة رأسه صخرة، وكان الولد على وشك الموت.

بعد أيام أعطى الغول للبنت مفاتيح دور القصر كلها، وظلت البنت تعيش هناك، ثم أصبحت تحاول فتح الدارين المغلقتين، وحدث أن حمحمت الفرس، فسمعها الغول وهو في الغابة... حيث قفل راجعاً صائحاً:

- «ريحة المسرى والكسرى! واش جابها لي في قصري؟!».

- «إيه» قالت البنت للغول: «مر من هنا غراب فمزق خرقة من القماش، سوف أحرقها لك».

أحرقت البنت خرقة من منديلها، وأعطتها للغول فسفّها، وذهب في سبيله.

بدأت البنت تفتح الباب على ذلك الولد، تدخل إليه، فتضع عن رأسه الصخرة، ثم تدلّك جسده من رأسه إلى قدميه، تعطيه ليأكل ويشرب، وعندما يعود الغول وتسمعه يدق على باب القصر، تسارع هي فترد الصخرة على رأس الولد وتغلق عليه الباب.

يرجع الغول صائحاً كلما أحسَّ بشيء غريب يجري في داخل قصره.

- «ريحة المسرى والكسرى!.. واش جابها لي في قصري؟!».

- «إيه» تقول البنت: «مرت من هنا قافلة جاءت منها خرقة تطير، سوف أحرقها لك».

بقي الولد كذلك حتى تعافى واسترد قواه، أصبح «تبارك الله» شاباً كامل القوى.

– «الآن» قال الشاب للبنت: «ماذا نفعل لهذه الفرس؟ هيا دعينا نصنع ثقباً قرب كفلها، ونبقى نمدها بالقمح فتمتنع عن أكل عظام الناس، ونظل نربت عليها، وسوف أغني لها:

مرايا.. مرايا
خذيني لبابايا
نسقيك حليباً راس
نزوجك إلى ترّاس».

عملت الفرس هكذا فاستسلمت!

بعد أن أصبحت الفرس مسلمة، قالت البنت للغول:

– «تعالى يا جدي.. سأفلي رأسك وملابسك تحت الشمس»، فوجدت في رأس الغول إبريقاً هكذا كبيراً مملوء بالماء، وجدت حزمة من الرماد، عوداً كبيراً طويلاً من غاب القصب مملوء بنبات السعدان... صاحت البنت بالغول:

– «جدي! ما هذه الأشياء التي تعلقها في شوشة رأسك؟!».

صرخ الغول متوعداً:

– «آاا... هل ستخونيني؟».

بادرت البنت إلى البكاء والنحيب أمام الغول:

- «هي هي هي . . . من أعرف غيرك، من لي سواك، أين لي أن أذهب بعيدة عنك يا جدي . . .».

ثم انهمكت في البكاء.

- «لا لا لا» قال الغول، «لا تبكي يا ابنتي، هذه الأشياء يرميها من يريد الهروب: غاب القصب هذا يصير غابة من الأشواك السعدانية، هذه الحزمة من الرماد تصير نار جهنم، وهذا الإبريق يصير بحراً، لا أحد يستطيع الهرب . . . لا أحد».

خرج الغول إلى الغابة، فنهضت (حبحب رمان) بعد أن عرفت الأسرار، دبرت إبريقاً آخر، غاب قصب آخر، حزمة رماد أخرى، ثم بدلت الأشياء: علقت في رأسه تلك وأخذت هذه، ثم بدأ الشاب يخرج ممتطياً تلك الفرس، يجري بها هنا، ويجري بها هناك، ثم يعود بها. استمر هكذا حتى تأدبت الفرس، بعد أن كانت غولة تأكل عظام الناس، وبعد أن تأدبت وأصبحت مسلمة، حمّلها الشاب والبنت بالأموال والدراهم، ركبا عليها وغادروا جميعاً: حبحب رمان، والشاب، والفرس.

رجع الغول إلى قصره فلم يجد أحداً، لا البنت، ولا الشاب، ولا الفرس. صرخ الغول: «لقد عملوها!».

اصطحب الغول معه كلباً سلوقياً وخرجا معاً. أخذ الغول يبحث وينادي الفرس:

مرايا . . مرايا
أنا الذي أطعمتكِ
أنا الذي ربيتكِ.

تسمع (مرايا) النداء فتقف وتمتنع عن الرحيل، يقوم الشاب ويبدأ في الغناء للفرس:

مرايا.. مرايا
وصليني إلى بابايا
نسقيكِ حليباً راس
نزوجك إلى ترّاس.

تسمع (مرايا) الغناء فتستأنف المسير بقيا معها هكذا..

عمل الشاب والبنت هكذا فرميا للغول خلفهما بحزمة الرماد. تحول الرماد إلى جهنم من النار وألسنة اللهيب، أخذ الغول يضرب بدبوسه يمنة ويسرة في ذلك اللهيب، صنع درباً سلكه هو وكلبه.

عمل الشاب والبنت هكذا ورميا خلفهما بغاب القصب الملآن بأشواك السعدان. لم يعد في وسع الغول وكلبه سوى تنحيه تلك الأشواك من طريقهما.

بقي الآن ذلك الإبريق..

أراد الشاب والبنت أن يرمياه خلفهما، فارتبكا ورمياه أمامهما.. صار ذلك الإبريق المليء بالماء بحراً من أمامهما، بحراً متلاطم الأمواج لم يجدا سبيلاً ليسلكاه، بقيا على ظهر الفرس التي أصبحت لا تقوى على اجتياز البحر الهائج. خافا من الغول أن يلحق بهما، طفقا يبكيان، ثم بدآ يصيحان، وأخيراً أصبحا يصرخان حتى بلغ صراخهما إلى السماء السابعة.. هنا جفلت الفرس من ذلك الصراخ، قفزت إلى أعلى وطوحت بهما من على ظهرها.. وهربت.

توترت أعصاب الغول من شدة شوقه إلى (حبحب

رمان)، حتى قال في نفسه: «ابنة الكلبة، سوف أريها»، ثم نطق الغول في صوت الرعد:

« يا جمالها تعالَ إليَّ.
يا قبحي اذهب إليها».

تلفت الشاب إلى حبحب رمان فوجدها غولة! قال الشاب في نفسه: «لقد تغربتُ عن أهلي طويلاً، والآن إذا رجعت إليهم بهذه الغولة، فإن البلاد كلها سوف تعيش في الرعب، ماذا عساني أصنع؟».

بحث الشاب حوله فعثر على شجرة «المتنان»، قال الشاب للغولة: «ارتاحي هنا، سوف أذهب لأرى هذه البلاد القريبة من هنا، فإذا كانت بلاد أبي فسوف أرجع إليك لآخذك معي، أما إذا لم تكن بلاد أبي، فسوف أرجع لآخذك إلى بلاد أخرى».

ترك الشاب غولته وذهب.

رجع الغول إلى نفسه وأشفق على (حبحب رمان)، قال محدثاً نفسه: «المسكينة، لقد وضعتها في رقبتي، لماذا فعلتُ هذا؟ كل البلدان سوف تخاف منها، من ذا الذي لا يخاف من الغولة؟».

نهض الغول وانفجر في صوت الرعد:

ـ « يا جمالها ارجع إليها.
يا قبحي ارجع لي».

تحولت الغولة إلى حبحب رمان مرة أخرى، بعد أن استعادت جمالها، بقيت تنتظر، طال انتظارها لكن الشاب

لم يرجع إليها، لقد عاد إلى أهله، وتركها هناك في الغابة، وحيدة تحت شجر المتنان.

قامت وبدأت تمشي على غير هدى، حتى عثرت على عجوزة كانت تجمع الحطب، «من أين أتيتِ يا ابنتي»؟ قالت العجوزة: «إن وجهك أجنبي»، «ذهيبة ربى» ردت حبحب رمان: «لم أجد مكاناً أعيش فيه».

أخذت العجوزة معها حبحب رمان، وذهبت بها إلى بيتها.

عاد الشاب إلى بيت أهله وذويه، أقام أهله الولائم تكريماً له، يبشرون الناس، ويذبحون الذبائح... لقد كان فرحاً كبيراً، ثم خرج أبو الشاب وفرق الثيران على أهل البلاد، قال لهم: «أريدكم أن تطعموا هذه الثيران وأن تسمنوها، لأنني أريد أن أزوج ابني لبنت عمه».

بقيت حبحب رمان مقيمة في بيت تلك العجوزة، وبعد أيام قامت وخاطبت العجوزة: «جدتي، اذهبي وأحضري لنا نحن أيضاً ثوراً لكي نربيه»، «إيه!» قالت العجوزة: «يا ابنتي، كيف لنا ذلك؟ نحن لا نملك شعيراً ولا تبناً... ماذا سنقدم للثور؟ بماذا نطعمه؟». قالت حبحب رمان: «لا عليك يا جدتي، اذهبي فقط، وابحثي لنا عن ثور».

خرجت العجوزة، وقالت لأهل البلاد: «أعطوني حتى أنا عجلاً سوف أربيه لكم»، رجع أهل البلاد وقالوا لها: «ها هو ذا عجل هزيل، إذا عاش وتعافى فهذا حسن، وإن لم يعش فليلق الخير». أخذت العجوزة معها ذلك العجل، ورجعت به إلى حبحب رمان.

بدأت حبحب رمان تنهض الصباح لتغسل يديها ورجليها، فينمو جدول من الكلأ... من ماء يديها ورجليها، فيأكل ذلك العجل ثم ينام، في منتصف النهار، وقت الغداء، تنهض مرة أخرى لتغسل يديها ورجليها، فينمو جدول آخر من العشب، يقتات عليه ذلك العجل. في وقت المغرب تنهض حبحب رمان لتغسل يديها ورجليها لينمو جدول آخر من النبات الذي يأكل منه العجل... حتى أصبح ثوراً ضخماً يوشك أن ينفجر من كثرة اللحم والشحم.

بدأ أهل الشاب يستعدون لإقامة عرس ابنهم، جمعوا تلك الثيران لكي يقيموا الذبائح، ثم نادوا في خدمهم وقالوا لهم: «اذهبوا إلى ذلك العجل عند تلك العجوزة، فإن عاش ارجعوا به، وإن لم يعش أو بقي هزيلاً فليلق الخير».

حينما ذهبوا ليتفقدوا العجل، وجدوه ثوراً ضخماً لا يقوى على الوقوف، لأنه يوشك أن ينفجر من كثرة اللحم والشحم، وما أن خرجوا حتى أسرعت حبحب رمان إلى الثور، قالت له: «لو نهضت واقفاً فإن نهارك أحرف! نهارك أحرف!! لا تنهض حتى أخرج إليك أنا وذلك الشاب».

رجع الخدم ليأخذوا معهم الثور، لكن على الرغم من محاولاتهم المستميتة رفض الثور أن ينهض أو ينصاع لهمزهم ولكزهم. عادوا إلى الشاب وقالوا له: «إن الثور لا يقوى على الوقوف. خذ معك سكيناً، وانحره هناك»، غضب الشاب وثار صارخاً: «كيف لا يقوى على الوقوف مثل هذا الثور؟»

وصل الشاب ثائراً هائجاً إلى الثور، حاول معه كل وسيلة فلم يحرك الثور ساكناً. . . هنا خرجت حبحب رمان إلى الثور الذي نهض سريعاً بعد أن لكزته بقدمها، وطفقت حبحب رمان تغني:

– «نحارته، جزارته
علي ولد السلطان
خلّي حبحب رمان
تحت المتنان. . .».

. . . هنا أسرع الشاب وقال لهم: «اتركوه. . اتركوا الثور في مكانه»، ثم نظر إلى حبحب رمان فعرفها وعرفته، قال الشاب: «أنا الخائب إذن!».

رجع الشاب إلى أبيه وقال له: «لا أُريد بنت أخيك، ولا أُريد منك شيئاً، إن زوجتي ها هي جاهزة»، ثم ذهب الشاب وأعطى كل ذلك الخير إلى تلك العجوزة.

الفهرس

* رائحة الكسرى والمسرى ـ توطئة 7
* الموت أكثر من مرة 14
* الجزاء 30
* بونفيص 33
* المستملك 33
* الفراق الأخير 53
* وطن الأهوال والأغوال 59
* جنس والا ونس 65
* الإنسان 69
* حكاية الوحوش 73
* قصبة الزجاج 78
* جميلة وجميل 84
* الحرام 92
* عائشة 99
* حبحب رمان 109